

قصص

عاملة المنزل رقم 14

أميمة السلاخ

عاملة
المنزل رقم

14

قصص

أميمة السلاخ/ كاتبة وإعلامية مصرية، حاصلة على ليسانس الآداب من جامعة عين شمس، تعيش وتعمل بالمملكة العربية السعودية منذ 1995، بدأت حياتها المهنية في المجال الصحفي، حيث عملت في العديد من الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية والقنوات التلفزيونية.

صدر لها رواية "معلقون بالأمل" عام 2015؛ ومجموعة "عاملة المنزل رقم 14" هي كتابها الثاني.

عاملة المنزل رقم 14

الطبعة الأولى 2018

رقم الإيداع: 2018/13529

التقييم الدولي: 3-074-821-977-978

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

عاملة
المنزل رقم
14

قصص

أميمة السلاخ

سفا

SEFSafa PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSafa.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشؤون الفنية

السلاخ، أميمة

عاملة المنزل رقم ١٤: قصص / أميمة السلاخ

الجيزة، دار صفصافة للثقافة والنشر، ٢٠١٨

١٥٤ ص، ٢٠ سم

تدمك ٣-٠٧٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣/٠١

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٣٥٢٩

المحتويات

خَفَ النَّافِذَةُ	7
هنا لا يوجد ألم	11
اعترافات ليلية	21
قِلاقي	23
صباحات مُلتبسة	33
ونسُ مُستعار	37
زيارة خاطفة	45
غزلُ بناتٍ	47
دواءٌ للصُّداعِ	53
عبيرُ الرّوحِ	59
هديلُ اليمامِ	63
الكمالُ المفقودُ	73
يومٌ تعامدتِ الشَّمْسُ	77
على وَجهِ رَمْسيسِ الثاني	77
عصيرُ برتقالٍ	87

مساراتُ خاطئةٌ	91
قبلَ عشرةِ أحوالٍ مِنَ الآنَ	101
على الرصيفِ	103
مِلامِحُ صادقةٌ	109
عندما قرَّرتُ أمِّي الانتحارَ!	121
اغتصابٌ	127
سَكَنُ مؤقتٌ	129
العاملةُ رقمُ 14	135

خَلْفَ النَّافِذَةِ

كانت الشوارع شبه خالية في ليل القاهرة، عندما أشارت الساعة إلى ما بعد منتصف الليل، وقد بدأ الشيخ عبر مذياع السيارة في تلاوة سورة "المؤمنون".

زَخَّاتِ المطر تلاحقهما، منهمةً بخِفةٍ طوال الطريق إلى بيتهما، ومسّاحة الزجاج الأمامي لسيارتهما تعمل روتينياً، للحدّ من غزارة الأمطار وتوضيح الرؤية للقيادة بأمان.

صامتٌ هو، ومنتهبٌ لما يتلوه الشيخ في محطة القرآن الكريم.

أمّا هي فقد أرختْ زجاج نافذتها قليلاً إلى أسفل، لتستمتع بالهواء البارد المُشبع برائحة المطر، فطال وجهها انتعاشٌ جعلها منتشية بسحر الطقس.

بابتسامة سألته: «ممكن أخلع الحجاب؟».

أجابها كأن حيّة اقتربت منه: «ماذا تقولين؟! أفقدتِ عقلك؟!».

«لا، لا، لقد فهمت خطأ»، سارعت بالقول، وأضافت: «أريد لشعري أن يشمّ الهواء وتملأه رائحة المطر».

ردّ عليها بعصبيّة: «لكنك محجّبة، وهذا حرام».

- «أنا لا أطلب منك أن أخلع الحجاب إلى الأبد، بل لثوانٍ فقط أكون من دونه، والآن، في أثناء قيادتك للسيارة، فكما ترى، لا أحد يسير معنا على الطريق، وبيننا وبين السيارات الأخرى مسافة،

لن يراني مخلوق. دقيقة، وبعدها سأعود إلى ربط الطرحة من جديد».

- «أنتِ على مشارف الأربعين؛ اصبري واحتسبي، «مش هتعيشي قَدَّ ما عشتي»، ولن ترتدي من بعدها حجابًا».

نظرت إلى جانب وجهه الأيمن، رأته كيف يهزُّ رأسه متعجبًا ثم يتمتم: «عسى الله أن يهديك، أمَّا زلتِ تفكرين بهذه السطحية؟!».

استمرَّ في قيادة السيارة بالثبات ذاته، أمَّا هي فقد خفضت زجاج النافذة إلى آخره.

خلعت حجابها، أخرجت رأسها، وأخذ شعرها يطير في كل اتجاه مع الهواء، متشرِّبًا رائحة وقطرات المطر.

هنا لا يوجد ألم

أصابني ألم شديدٌ في أسناني، ولم أجد للتخلص منه سبيلاً.
بحثت عن طبيبٍ ماهر، وبعد جهدٍ توصلت إليه.

دخلت إلى غرفة الاستقبال، ووجدتها تجلس أمامي تعبت
بجوالها، على مكتب بُني اللون يتّضح من تفاصيله أنه أُعيدَ
ترميمه وطلاؤه منذ فترة قريبة. بابتسامة مصطنعة استقبلتني،
بعدما أُجرت مسحاً شاملاً عليّ، من أعلى رأسي إلى أخمص
قدمي، تبعث ذلك حالةً من عدم الرضا ظهرت على ملامحها.

أعطتني ملفاً من ورقة واحدة فارغة من المعلومات الأساسية،
وطلبت مني تعبئته أمامها، وبلهجة جافة قالت كأنها تستجوبني:
أول مرة عندنا، صح؟

هززت رأسي بالموافقة، وأكملت الخانات المطلوب مني ملء
فراغها، ثم أعطيتها الملف في يدها.

تَعَجَّبْتُ من انفعالاتها المضطربة والقلقة التي استقبلتني بها،
كأنها تبحث عن شيء ما في ملامحي، وأنا مرتبكة من زيارتي
الأولى لطبيب الأسنان، ومترقبة الخطوة التالية، هل سأدخل
حجرة الكشف أم سألزم مكاني؟ وعندما زاد تَفَحُّصها لي لم
أستطع أن أمنع نفسي من سؤالها: هل أذكركِ بأحد؟

أجابتنني: لا، أبداً، اتفضلي ارتاحي، بعد هذه الحالة سيراك
الدكتور عادل.

كانت العيادة بسيطة منمّقة، والأهمّ أنها نظيفة، ومن رائحة
الطلاء المنتشرة بالأجواء تأكّدت أنه أُعيدَ تجديد المكان منذ فترة
قريبة، لكن ما أتلّف التحديثات هو الزهور الصناعية الرخيصة
التي ملأت الأركان كنوع من الزينة.

«اتفضلي»، قالتها لي.

بقلق ورهبة دخلتُ حجرة الكشف، واستقبلني الطبيب بملامح
هادئةٍ وترحابٍ صادق.

توقّفتُ أمام جملمته التي قالها لي عندما سألتها إن كنتُ سأشعر
بألم، «هنا لا يوجد ألم»، التي ظلّت محفورة في ذهني إلى اليوم.

خُطّةٌ علاجي جعلت زياراتي للطبيب متكررة أسبوعياً، وفي كل
مرة أحضر فيها للعيادة كنت أرى لهذه المرأة دوراً جديداً، فهي
مساعدة للطبيب في أثناء مراحل العلاج، سكرتيرة تخرج على
عجل لتعطي مرضاه تعليمات الطبيب، أو تكتب فواتير الحساب
وتُحصّل إيرادات العيادة، لكن الثابت دائماً هو نظراتها القلقة
التي قد تصل إلى الريبة، خصوصاً عندما تعامل الطبيب معي
ببعض التعاطف، إذا ما استمرّ علاج السنّ لقُرب الساعة، فكان
يهونها عليّ قائلاً: تذكّري دائماً أنه بعد دقائق قليلة سوف ينتهي
كل هذا وستكونين أفضل.

كذلك لم تكن تبخل عليّ ببعض نظرات الحقد، عندما كان

يسألني الطبيب سؤاله المتكرر في كل زيارة: «هل تشعرين بألم؟».

أبتسم وأهزّ رأسي بالنفي.

مع تكرار جلسات العلاج حاولت أن أتلاطف معها بالحديث قليلاً، لكنها لم تتقبّل رفع أي كُلفة بيننا، بالعكس تضاعفت صرامتها، وكلما كثر اهتمام الطبيب بمريضته زادت نظراتها حِدَّةً.

فأصبحتُ أحمل همّ زيارتي للعيادة، بخاصة أنه لا يزال أمامي أكثر من شهر للانتهاء من مراحل العلاج... حتى سألتني سؤالاً مباغتاً وهي تدوّن لي فاتورة الحساب في الدفتر الكبير أمامها: هو حضرتك متزوجة؟

استوقفتني وقاحة السؤال وقرّرت ألا أريحها: لماذا تسألين؟

سكتت كأنها للحظة تحوّلت إلى صنم. أعطيتها الحساب وتركت العيادة.

في زيارتي اللاحقة أتيتُ في الموعد كعادتي، وفي أثناء انتظاري أتت إليّ: إزيك مدام سلوى؟ حضرتك مواعيدك مضبوطة جداً.

ابتسمت لها ولم أعلّق.

- على فكرة أنا سألتك إذا كنت متزوجة أو لا، لأنني لاحظت عدم وجود دبلة في أصبعك، رغم أن حضرتك جميلة وشيك جداً بصراحة، جميعنا نعلم بحضورك قبل أن نراك من رائحتك التي تسبقك.

ضحكة صفراء خرجت من بين أسنانها الطويلة القافزة بعضها فوق بعض لتكشف عن غضب أصبحت أعرف سببه.

حاولت ألا أكون فجّة وأجبتها دون أن أشفي فضولها: شكرًا، ده من ذوقك.

وقفت أمامي لثوانٍ كأنها تنتظر إجابة أخرى. ارتباكها فضحها فتراجعت قليلًا إلى الخلف كأنها تترك لي الطريق إلى غرفة الكشف ممهدًا للدخول.

- تفضلي، الدكتور في انتظارك.

أصبح الموضوع هزليًا قليلًا، وباتت أسئلتها وردود أفعالها محل اهتمامي، وأخذت أحكي عن تصرفاتها وأتندر بها أمام صديقاتي.

مع الوقت هدأ شيء ما بداخلها، لكن استمرّ عدم قبُولها يظهر واضحًا من زمن الجلسات التي تخصّصها لي، فيخبرها الطبيب عن ساعة كاملة زمن الجلسة، وتخبره معترضةً أنها نسيّت وجعلتها نصف المدة! في أثناء عمل الطبيب أصبح من الطبيعي

أن تنبّه بالموعد الذي ينتظر بعدي إذا أخذ يسترسل في إعطائي التعليمات بطريقة أكثر تفصيلاً، ولا تتوقف إلا عندما يرمقها بنظرة كنت أخشى عليها منها.

... وأخيراً انتهيت من علاج أسناني وتنفست الصُّعداء، وانتهت علاقتي بالعيادة.

منذ شهر أرسلت إليها رسالة عن طريق «واتساب» أخبرها فيها برغبتي في تحديد موعد جديد لي، رأت الرسالة ولم تردّ، اتصلت بها هاتفياً فلم تستقبل مكالمتي ولم تعاود الاتصال بي.

اضطّرت إلى سؤال الصديقة التي عرّفتني إلى الطبيب عن رقم آخر لها، فطلبتها وردّت عليّ مباشرةً مستقبلةً المكالمة بسؤالِي: «من أين أتيت بهذا الرقم؟!».

«كأنه سرّ الأسرار»، قلت لنفسي.

أوضحتُ لها أن الأمر كان بمنتهى السهولة.

- «أهلاً وسهلاً بحضرتك، سلامات، خير؟ هو حضرتك لحقت سنانك توجعك؟!».

ببرود أجبتها: «اللي يتعامل مع طبيب مثل الدكتور عادل مايتعبش من وجع أسنانه، بالعكس يتمناه».

كأنّي أستمع إلى كزّ أسنانها على الهاتف.

وأكملتُ: «أرجو حجز موعد لي في أقرب وقت ممكن».

- «للأسف لا توجد مواعيد قريبة، أقرب موعد سيكون...».

سمعت «خرفشة» أوراق فتعمدت أن أدخل البهجة إليها فقلت:
«ياريت تحاولي لأنني مسافرة».

- «هو حضرتك هتطوّلي بره؟».

- «سنة تقريبا».

لم تستطع أن تُخفي فرحتها.

- «هاحاول، هاكلم حضرتك بالليل أبلغك بالموعد».

ربع ساعة ووجدتها تخبرني بتوافر موعد في اليوم التالي في
التاسعة مساءً.

- «بس ممكن أعرف حضرتك بتشكي من إيه؟ كما تعلمين
الدكتور عادل يريد معرفة معلومات عن حالة المريض قبل أن
يراه».

- «يمكن خلع».

- «لا، ألف سلامة».

قبل التاسعة بدقائق كنت في العيادة مع زوجي، استقبلتنا
سواء بفرحة غامرة، وعيناها تدوران يمنا ويسرة تنظران إليَّ

وإليه، كأنها تسألني من هذا.

- «الموعد ليس لي بل لزوجي».

- «أهلاً وسهلاً بحضرتك وزوج حضرتك، اتفضلوا ارتاحوا».

بسرعة أحضرت إلينا الملف ذا الورقة الواحدة وأعطته لزوجي ليملأه من مكانه.

- «تحبوا تشربوا حاجة؟».

- «شكراً».

- «أهلاً وسهلاً بكم».

ذهبتُ إلى مكتبها، جلست قليلاً ثم عادت تقول: «تعرفني حضرتك إنك تشبهي زوجك كثير؟».

- «معقولة؟! أول مرة يخبرنا أحد بذلك» (قالها زوجي).

ملامي ظهر عليها التعجب، ولكن رغبت بالتهوين عليها.

- «لعلك تقصدين الروح».

- «أيوه بالظبط (مع ابتسامة رحبة)، الظاهر إنكم بتحبوا

بعض خالص (تنتظر إجابة)».

في هذه اللحظة أشفقت عليها وأردت لها أن تهدأ قليلاً،

فانفعالاتها أصبحت مبالغة.

- «بالفعل، عشر سنوات عمر زواجنا، وهو زوجي وحببي
أيضاً».

- «الله!».

قالتها وهي شابكة كفيها معاً، وقربتهما من ذقنها ورقبتها،
كأنها تضع قلباً أحمر بجوار الكلمة، وبسرعة أخذت الملفّ بعدما
ملأه زوجي بالمعلومات المطلوبة، وأخذت تتفحص سريعاً ما به
من معلومات.

عادت إلى مكتبها الموضوع في وسط غرفة استقبال العيادة،
جلست على الكرسيّ الجلديّ، أرخت ظهرها وتنهدت تنهيدة
عظيمة، قبل أن يرنّ جرس الطبيب لينبئها عن موعد دخولنا إليه.

اعترافاتٌ ليليةٌ

سنواتٍ طَوَّالٍ وأنا أحاول أن أثبتَ له ولأهله أنني جديرة به،
أستأمله عن جدارة واستحقاق.

في المقابل لم يروا مني إلا ما يرغبون في اعتقاده، لم يشفع لي جمالي ولا شهادتي الجامعية ولا أصولي العائلية، فأنا امرأة "معيوبة"، حتى أصبح لديّ إيمان راسخ بأنني زوجة فاشلة، فما تفعله كل النساء عجزت أنا عن فعله، لم أستطع أداء المهمة التي في الأصل خُلقتُ لها، فلم ولن أسهم في إعمار الكون، ولن أساعده في تخليد اسمه وإنجاب وريث شرعي له من نُطفته، كل المحاولات لم تُجِدِ نفعًا، بل العكس، أكَّدت كوني أرضًا بورًا غير صالحة للتخصيب.

كان ينظر إليّ بشفقة، وأعذر له عجزه عن الدفاع عني أمام والدته، التي لم تدَّخر وسعًا في إحراجي وتأنيبي على ذنب ليس لي فيه يد... حتى قلت له يومًا وأنا على مشارف الأربعين: تزوّج.

- ومن قال لك لم يحدث؟

لقد فعلتها مثني وثلاث ورُباع، العيب فيّ أنا أيضًا.

ثم أنهى حديثه بسخرية قائلًا: "ما جمّع إلا أمّا وفقّ!"

قِلاَقِي

استقبلتني نادية بنبرة لا تخلو من العتاب: ”تأخّرت كثيراً يا نسرين“.

لم أشأ أن أخبرها بمحاولتي مقاومة الفكرة، لعلّ عقلي ينتبه فيدير دفة الأمور.

- «كلها نصف الساعة يا نادية، لماذا تُشعِرِينِي أن الدنيا انتهت؟».

- «لأنها بالفعل كذلك؛ لم يتبقَّ أيُّ من الصغار هنا، جميعهم ذهبوا».

باغتني رُدُّها، فأهل هذا البلد يؤمنون أن الكلاب كائنات نجسة، وأن وجودهم داخل البيت يمنع دخول الملائكة! ما هذا التناقض؟! لم أصرِّح لها بما يدور بداخلي، فهي منهم، ولا وقت لصراعات دينية.

- «ما العمل؟».

- «تعالى الأسبوع القادم، لكن قبل هذا الوقت بساعة، وسوف أتابع معك على «واتساب» إذا حدث جديد».

لم أحاول تأنيبها أو حتى تذكيرها ببعد المسافة بين بيتي والملجأ، التي تزيد عن ساعة، فما حيلتها في ذلك؟

أنا من تعلّقت بهم بعد تجربة، فالبعض يبتعد تمامًا عن تكرارها، وقلةٌ من يُصِرُّون على تكرارها لمزيد من وجع القلب.

البداية كانت قبل ثلاث سنوات، وكان الموقف مُربكًا؛ لأنه لم يكن لدي سابق معرفة بهم، لا حُب ولا كراهية، كنت في منطقة اللا موقف، حتى أصرّت ابنتي على تربية حيوان أليف في البيت، فجاءت «قِلاقي» هديةً لا تُباع ولا تُردّ، قفصين كبيرين من المعدن المحاط بالأسوار من كل جانب، بداخل كل قفص ثلاثة من الكلاب الصغيرة التي تنبح بشدة، مرتعدة من الخوف، لا تثبت في مكان. عذرتهم لذلك، فهم أمام أناس يرونهم للمرة الأولى، محبوسون داخل مساحة ضيقة، لا حول لهم ولا قوة، ورغم عدم وجود أي منفذ يحاولون الهرب بطريقة جنونية مع نباح قوي، أمّا هي فكأنها في عالم آخر، لا تمتّ بصلة إلى أحد من حيث المكان أو الزمان، معتزلة الآخرين، ممدّدة في مكانها، مفترشة أرض القفص في ركن بعيد.

قِلاقي كلبة صغيرة ذات شعر أشعث أبيض كثيف، تختفي من ورائه عيناها، مع أنف دقيق أسود اللون، وفم صغير بذات اللون مرسوم بدقّة، تنظر إلينا خُلُسةً ثم تعود بعينيها إلى أسفل حيث أرضية القفص، وأحيانًا تُغمضهما، كأن ما يدور حولها لا يعينها في شيء. لفت ابنتي هدوؤها، واقتربت لتراها من خلال السلك، ظلّت في ثباتها وتقوُّعها في الركن البعيد الهادئ، حتى حصلت

على أقل مساحة جمعت فيها شتات جسدها الصغير، لاحظتُ نظرات عينيها، وما فيهما من حزن غير معلوم الأسباب، لا دموع فيها - لا أعلم إذا كانت الكلاب تبكي بالدموع أم لا - لكنها مليئة بمشاعر فقد أو شَجَن، بسذاجة أقيس ما أراه بتفكير إنسانيّ بَحْتُ، نظرتُ إليها وعلامات استفهام عديدة دارت برأسي عن سبب ما هي فيه، بينما بقية المجموعة في هرج ومرج ينبحون ويتسلقون القفص في محاولة للفت انتباهنا أو حتى محاولة الاقتراب منا لإيذاننا لتركهم محبوسين في هذا المكان الضيق... حتى أشارت ابنتي: أريد هذه هناك.

«ما اسمها؟»، سألت السائق الذي أتى بهم فأجابها: فلاقني.

- «خلاص، هناخد فلاقني».

في الأيام الأولى كان جميع من في البيت في حالة توتّر، فنحن لا نعرف كيف نتعامل معها. نضع الطعام والماء ونراقب متى ستأكل، وضعنا لها بطانية صغيرة في أحد الأركان وانتظرنا جلوسها عليها، اختارت هي مكاناً تحت الطاولة الخشبية التي تتوسط غرفة المعيشة، تجلس فيه طوال اليوم، وفي الليل تذهب لتضمّ جسدها على البطّانية التي في الركن. نتمشى بها قليلاً عند نهاية اليوم لتقضي حاجتها، حتى وجدناها تقف عند الباب في التوقيت نفسه في انتظار من يأخذها إلى تلك النزهة اليومية، يوماً بعد يوم أصبحت تعرف من يُطعمها، وعندما تجوع تأتيه

وتنظر إليه في عينيه مباشرةً، فأصبحنا نفهم من تلك النظرة ما تريد، كأنها تُفهِمنا أن طريقتها في الحديث «لغة العيون».

باتت فِلافي جزءًا أساسيًا من الحياة، أُفِيق من نومي لأجل اللعب والمرح معها ومحاولة تعليمها كيفية الجلوس أو الوقوف، وماذا تعني كلمة لا، وكيف أنها سوف تحصل على الحلو مكافأةً لها إذا سَلَكَت سلوكًا جيدًا... للأسف كانت تلك طريقتنا لنجعلها أشبه بآدمي مطيع.

وإذ بها تفتح أمامي عالمًا جميلًا، تتقبل كلاً منا كما هو، تجود بالحب والاهتمام في أبسط صورته، لمَسْتُها تمنح الولاء في أجمل معانيه، تعبّر عن الحب والاحتياج بالجلوس بين يديّ، وتحتضنني كأنها تضم العالم بجزء من جسدي، روح جلبت السعادة للبيت، وأصبحت سببًا للتأمل في خلق الله، نوع جديد من الفرح لم أكن أعتقد أنني أفقده حتى حصلت عليه! فدخلت ملائكة الرحمة بيتنا، وشاعت معها الغبطة وأيضًا كثير من الأسئلة الحائرة.

كيف يكون احتواء هذا المخلوق الجميل في المنزل حرامًا؟! إذا كانت حرامًا ونجسة فلماذا خلقها الله؟ وإذا كانت تمنع دخول الملائكة فكيف خلقها الله المنزل عن الشر؟ ولماذا أتت إذا لم يكن محسوبًا لها نصيب من العيش؟!

مع الوقت لم أعد أبحث عن إجابات، تناسيتها واكتفيت بحالة

التأمل والسعادة التي أجدها في جوارها، فقد حسمت الأمر ولم أعد أو من بما يروجون له.

... حتى لاحظنا أنها رغم ما تبثه في أرواحنا من حُبور، فإن ملامحها وتصرُّفاتها تقول إن بها شيئاً ما؛ لا تلعب كثيراً، ولا تنبح مثل أقرانها، وتجلس في ركنها البعيد، لا تتحرك لساعات... فساورنا القلق عليها، وذهبنا بها إلى عدد من الأطباء البيطريين، فلم يعلم بحالتها إلا آخر طبيب، الذي أخبرنا بعد عدد من التحاليل أنها مريضة بالسرطان.

-نعم السرطان، وسوف ترحل قريباً!

كانت تتألم ولا تعبر إلا بعينين حزينتين، تحاول أن تجري وتمرح وتنسى آلامها، إلى أن يفاجئها الألم، فتجلس في جانب الغرفة على بطانتها الصغيرة بلا حراك لساعات، ثم تعود إلى حُضن أحدنا لدقائق، تقترب كأنها تودّع.

مع الوقت ورغم محاولات العلاج، كان الأوان قد فات ووهنت، حتى فقدت عافيتها شيئاً فشيئاً، ثم تلاشت تماماً وذهبت حيث المجهول.

أتذكر يوم وفاتها عندما حاولت أخذها معي من المستشفى لدفنها في الحديقة التي أمامنا، قال لي عامل المشفى الصغير: «سيدتي، البلدية تمنع ذلك، نحن نقوم بإجراءات الدفن».

- «لكنني أريد أن أعرف مكانها!».

- «لن تعرفي. البلدية تأتينا كل أسبوع وتأخذ المتوفى منهم، ويتكفّلون بدفنهم، في مكان في أطراف المدينة».

ثم ختم حديثه قائلاً: «إنها الآن روح، لم يعد لجسدها قيمة، لعلك تجدين قريباً روحاً كروحها في جسد آخر».

...

طوال الفترة الفائتة كنت في حالة بحث في ملاجئ أو محلات تربية الحيوان عن رُوحها، وهل بالفعل ذهبت رُوحها وتلبّست بجسد حيوان آخر!

وعادت الأسئلة الحائرة من جديد...

وهل يكون العلاج بكلب جديد، ولو من نوع آخر، ليصبح تناول المرُّ أكثر سهولة؟!

لذلك جنّت اليوم إلى نادية، للمرة الثالثة خلال ثلاثة أسابيع؛ لأن لهم موعداً ثابتاً، مرة في الأسبوع، لتبني الحيوانات الأليفة.

وقبل أن أترك الملجأ بعد حديث ولوم نادية لي، متوجهةً إلى بوابة الخروج الكبيرة فزعتُ، فقد رأيت شبيهةً لقلّافي، نفس الشكل والحجم، نائمة داخل قفص معدني مطليّ بالأبيض المتهاك من كثرة استخدامه، تجلس ممدّدة على بطنها مع آخر

من نوع مختلف عنها، ينبح هو ويجري في مساحة القفص المتواضع، وهي في مكانها تحاول أن تحيط جسدها بأقل مساحة ممكنة من القفص. اقتربت منها أحاول لمسها من خلال الفتحات العمودية بالقفص، رفعت رأسها، شممت يدي، ثم ابتعدت عني إلى وضعها؛ رحت أحاول مرةً أخرى لمس رأسها واللعب بشعرها الأبيض الكثيف، لكنها تناءت عني بعيداً، وتحاشت وجودي قربها.

تَعَجَّبْتُ من تَصْرُفِهَا، وتساءلت لماذا بعدت عني، ألم تجد رابطاً ما بيني وبينها يجعلها تتعلق بي؟! أم أدركت بأنفها رائحة حزني على فِلاقي ولم ترض أن تكون بديلة منها؟! مزيد من الهواجس والأفكار التي ليس بالضرورة أن أجد لها إجابة، فقط أطلقتها خارج صدري لربما طارت مع الهواء ودارت حول الكون وعادت بإجابات.

مباشرةً ذهبتُ إلى نادية التي كانت تملأ عقْد تَبَنِّ لإحدى العائلات، وقلت لها: «نادية، أريد هذه الكلبة المالطية هناك».

- «تَأخَّرتِ؛ لقد طلبتُ منك أن تكوني هنا في تمام الرابعة عصرًا، فذهبتُ للعائلة التي هناك».

صُدِمتُ من حديثها وأخذت أدور في المكان، وعدت إليها: «هل توجد أخرى تشبهها؟».

- «لا».

وقبل أن أترك الملجأ عُدْتُ أنظر إليها وأفكر في ردِّ فعلها، ربما
لذلك لم تحاول أن تقترب، فلم تُردِّ التعلُّق بي بعدما حُسِمَ الأمر.
تركت المكان وعُدْتُ من جديد إلى الطريق وإلى الكثير من
الأسئلة الحائرة.

صباحاتٌ مُلتبِسةٌ

تَرَبَّعتُ عَزَّةً في جلستها على الأريكة التي تتوسَّطُ الجلسة،
مرتديَّةً بيجامتها الشتوية، وأمامها التلفاز يعرض المسلسل
الصباحي الذي تتابعه بشغف، وتتناول إفطارها. يدها في طبق
جُبِنٍ تغمس فيه الخبز، ويدها الأخرى تأخذ قضمة من الخيار.

رَنُّ هاتف البيت فأصابها القلق، فليس من المعتاد أن يرنَّ في
هذا الوقت، ربما أصاب أولادها بالمدرسة أو زوجها في عمله أيُّ
مكروه.

فَزَّتْ من مكانها، رفعت سماعة الهاتف، وقالت: «ألو».

- «مدام عزة؟».

- «نعم، تفضلي».

- «أنتِ لا تعرفينني. هذه أول مرة أتصل بكِ، وكل ما أطلبه أن

تسامحيني».

بدهشة سألتها عزة: «عَلَامَ أسامحُكِ؟».

- «لن أستطيع أن أقول سوى أنني آذيتكِ يوماً، وحالياً أودِّعُ

الحياة المتبقِّي لي فيها أيام، أو على الأكثر أسابيع، وأريدكِ أن
تغفري لي خطئي».

- «من عيني. لكن أريد أن أعرف ما خطؤكِ، وَعَلَامَ تطلبين

المسامحة».

بصوت ليّن: «ليس بالضرورة أن تعرفي، فليس الغرض من هذه المكالمة نبش الماضي، بل طلب المغفرة».

- «وكيف أسامح وأغفر وأنا أجهل فعلتك؟».

ردّت قائلة: «لن أستطيع أن أخبرك».

- «وأنا لن أسامحك، فلتذهبي إلى الجنة أو إلى الجحيم

لايهمني».

وضّعت سماعة الهاتف في مكانها، عادت إلى فطورها من

جديد، وأكملت المتبقي من أحداث المسلسل.

وَنَسِّ مُسْتَعَارٍ

نذرت نفسها لتكون حيث يتجمّع الناس، وخصّصت لذلك جزءاً من يوم أسبوعياً، مقهى أو حفلة.. لم يكن مهماً من يدعوها، ولا إلى أين، المهم أن تندمج وسط مجموعة لا تمت إليها بصلة.

وفي كل مرة كانت تهتم بإطلالتها، لكن في النهاية يفرض عليها مزاجها ما سوف ترتديه.

قرأت عن إقامة معرض للفن التشكيلي لأحد الفنانين المخضرمين، مع تأكيد أن الحضور سيكون عظيماً، وهو ما تحتاج إليه.

وقت الافتتاح الثامنة مساءً كما كتب على إحدى صفحات الإنترنت، وصلت في الموعد لتضمن ازدحام المكان، فهي مُصرّة على التخلص من الخوف، ومن رهبة الأماكن والناس.

وقفت قبل القاعة بأمّtar قليلة، تحديداً عند باب العمارة الخارجي، ثم بدأت تدريبات التنفس، شهيقاً جمعت فيه هواء المكان بصدرها، وبهدوء وببطء لفظت ما عبّأته منه؛ بهوادة سارت داخل المكان، صعّدت سلّمَتين، وأمامهما كان مدخل المعرض، أو باب الشقة كما يظهر أمامها، بخطوات لا تخلو من التوتّر ولمزيد من الثقة رفعت رأسها وشدّت ظهرها إلى أعلى، مباشرةً كانت أمام الباب المواجه لزوار المعرض.

بشجاعة مفتعلة تخطو أولى خطواتها في المكان، وكعب

حذائها الرفيع يُسَمَعُ صوته فوق الأرض الخشبية، تسير بهوادة
وبعينين زائغتين تحاولان التقاط التغيير الطفيف الذي حدث،
بمجرد دخولها إليه.

هل هدأت الأصوات، أو تخافتت قليلاً؟ هل التفت لوجودها أحد؟
أصابتها الخيبة، فمرتادو المعرض يُعَدُّون على أصابع اليدين،
وليس بينهم الضيف الرئيسي، فجميعهم ليسوا بهيئة صاحب
الحدث، لا يوجد ذلك الشغف بُمْتَلَقٍ أو ضيف جديد للمعرض.

بخيبة تَتَفَقَّدُ الحضور، وبلا مبالاة تشاهد اللوحات، اقتربت من
إحداها وهي لا تدري إن كانت ستفهم ماذا أراد الفنان أن يوصله
من خلال هذه الرسومات. لِمَ لا؟ فهذه ليست المرة الأولى التي
تحضر فيها معرضاً فنياً. بثبات تشاهد العمل، فتلك فرصة لعمل
تدريبات التنفس من جديد، دون أن يلحظ ذلك أحد.

كانت خطوط العمل متداخلة مع ألوان متشابكة، إضاءة متعمدة
أضافها الفنان بريشته تجهل كيف فعلها، رسوم هندسية حُطَّتْ
بعناية على القماش الذي شُدَّ بحرفية، كأنه تَعَمَّدُ أن يُبرِزها لتترك
مكانها وتنظر إلى المتلقِّي، عندما اقتربت أكثر تأمَّلت أمامها
ولاحظت أن اللون الظاهر أمامها احتاج إلى ضرب الفرشاة بقوة
عشرات المرات ليُظهِر هذا التماوج الأخير لتلك الكتلة اللونية...
استمتعت بالعرض حتى كادت تنسى هدفها، وهو الناس لا ما

على الجدران، ثم أعادت النظر للمرة الأخيرة ولفتها إطار اللوحات وتساءلت: «لماذا وضعها داخل هذا الإطار الرخيص؟!».

ظلَّ السؤال معلّقاً حتى التفتت لتواجه تجربتها، من خلال الحضور المحدود في المكان.

كانت هناك مجموعتان، الأولى مكوّنة من ثلاثة رجال وامرأتين، يسترسلون بصخب في الحديث معاً، حول إحدى اللوحات، والمجموعة الأخرى تتكون من رجل وامرأة كأنهما اجتمعا هنا لغرض آخر، فقد كانا يجلسان بمُفردهما في آخر صالة العرض على طاولة جانبية محاطة بأربعة مقاعد، ويظهر الشابّ الذي يحكي بحماسة، والفتاة مستمعة بامتعاض، وبدا كأنهما في أوج النقاش.

اختارت الاقتراب من المجموعة الأكبر، بهدوء وقفت بجوارهم، أرادت اختبار وجودها الذي سوف تلاحظه من أصواتهم بمجرد اندماجها.

هل سيرحبون بها؟

يُلقون عليها السلام؟

لا، بل عليها أن تبدأ هي لأنها الآتية إليهم.

«مساء الخير»، قالت لهم.

رُدُّوا عليها التحية، تبع ذلك صمتٌ امتدَّ لبرهة.

اقتربت منهم أكثر، كأنها سوف تكمل حديثاً انتهى منذ لحظات عن اللوحة المرتاحة على الحائط، نظروا إليها ولم يبخلوا عليها بابتسامة مصطنعة، ثم غادروها معذرين لتكملة مشاهدة ما تَبَقَّى من لوحات المعرض، ثوانٍ وهي تراقب الموقف وحيدة... شعرت أنها مُهمَّلة مثل تلك اللوحة التي غادروها للتو متوجَّهين إلى الجانب الآخر من المعرض، وتساءلت لماذا لم يحاولوا تجاذب الحديث معها، وأيضاً لم يتقبلوا سقوطها المفاجئ عليهم!

حمَّلت نفسها خطأ هذه المحاولة، فقد كان عليها أن تكمل حديثها بسؤالهم عن رأيهم في المعرض، وهل هم مثلها مجرد زائرين، أم على صلة بالفنان صاحب اللوحات، كما كانت فرصة لتعرف أين الرسام ولماذا لم يأت يوم الافتتاح؟

لا تعلم كم مرَّ من الوقت وهي صامتة تراقب توتُّرها، وعشوائياً لم يعد أمامها سوى الشاب والفتاة اللذين يجلسان إلى الطاولة هناك.

جلست معهما بعدما وزَّعت ابتسامة خَجُولاً صامتة، كأنها تضعهما في اختبار حول كيفية التصرف مع ضيف حلَّ فجأة؟

أكملتا حديثهما لكن بخفوت لا يكاد يُسمع، بعدما فقد الشاب الحماسة التي كان يحكي بها، وأراحت الفتاة ظهرها على الكرسي

كأنها تأخذ هدنة للتفكير.

أما هي فقد سمحت لخيالها بأن يطرح بعض الأفكار حولهما، ربما كان يصارحها بحبه لها، أو يتشاجر معها لإهمالها موعداً سابقاً، وربما هو وسيط صلح بينها وبين حبيبها الذي لم يأتِ اليوم...

لكنها أخذت تقارن بين تصرفي المجموعتين، لماذا أول مجموعة لفظتها سريعاً، في حين وافق هذان الشابان على وجودها بينهما.

لعل ما بينهما أقل تماسكاً ممّا بين أفراد المجموعة الأولى التي أصرت على أن تتركها للإهمال، وبالفعل أغلقوا عليهم مجموعتهم وأجبروها أن تكون خارجها، بينما أكمل هذان الشابان حديثهما كأنها هواء.

إنها لأول مرة في مكان دون جماعة من معارف أو أصدقاء، فلم يحدث منذ فترة أن كانت بمفردها، منذ انفصالها عنه، دائماً محاطة به وبأصدقائه، لكن بعدما قررت تركه وانتهت القصة، عليها أن تعيد ترتيب وجودها في الحياة من دونه، فقد كان اختيارها، والسماح لأصدقاء جدد أن يعمرُوا حياتها الآتية، هذا هو اختيارها الجديد.

وبينما كانت تحاول التعامل مع تفاصيل المكان من بشر قليل،

وروائح، وحتى جماد، قاطعها الآتي الجديد إلى المكان، وكيف دخل بجلبة متعمّدة، مُلقياً السلام من بعيد بابتسامة عريضة، تحية المتأكد من الردّ بأحسن منها، بسهولة فرض وجوده، وتوجّه مباشرةً إليهم مندمجاً بحميمية معهم، وعندما لاحظ نظرتها المتطفلة بادلها أخرى منه وسلاماً بهزّ رأسه لها.

رغم ذلك ارتبكت وبادلته التحية من بعيد، أعطاهما ذلك بارقة أمل في أن هناك من يراها.

في مكانها، تتأمل كيف يتصرف من حولها بسهولة، كأنهما وحدهما في المكان، بينما أذناها مع رفيقَي المنضدة المستديرة، لكنها ظلّت محتفظة بصمتها، فتلك إحدى طرق الاحتفاظ بالجماعة (كما قرأت من قبل).

لمحت بطرف عينها الفتاة التي بجوارها ولاحظت كيف تهزّ رأسها رافضةً ما يهمس به الشابّ لها، بينما يثرثر الضيف الجديد مع المجموعة الأولى أمام إحدى اللوحات. لحظات وتراصوا متجاورين مكوّنين نصف دائرة استعداداً لأخذ صورة «سيلفي» معاً، تسمع مواء قطّ يتشاجر مع آخر خارج المبنى، هذا الصوت يجعل جسدها يقشعر، يشوشه قليلاً تسرّب أصوات الباعة الجائلين، مع صوت ماء يسقط من أعلى منور البناية.

دقائق وأصبح صوت الرفيقين أكثر وضوحاً، كأن كُلفةً ما قد

رُفعت بينهما وبينها، وسمعت كيف يترجاها أن تعطيه فرصة أخرى.

أومأت الفتاة برأسها مرحبة بالفكرة، ثم وقفا معاً إيداناً بالخروج من المكان بابتسامة رِضاً على وجهيهما، وفي أثناء مغادرتهما المعرض وجَّها إليها السلام، قال لها الشاب: «فرصة سعيدة».

أما الفتاة فقد قالت لها مودعة: «مع السلامة».

شعرت بسعادة غامرة.

ابتسمت لهما، وهمت هي الأخرى بمغادرة المكان بعدما أحسَّت أنها نجحت في اختبار اليوم، وحققت أول علامة تجعلها تستمر في نذرهما، والمرة القادمة التي ستطأ فيها مكاناً ما، سيعلم كل من يراها ولأول مرة كيف أنها شخصية ودود أجبرتها ظروف الحياة على الانطواء قليلاً، لكنها تعشق الحياة والناس، ولن يعود وجودها في المكان مرتبطاً بالإكراه، بل بالألفة مع من فيه.

زِيَارَةُ خَاطِفَةٍ

في أثناء غروب الشمس، كان الطقس مضطربًا، هواءً حارًّا
يعبث بأغصان الشجر الهزيل، فيُسقط على الأرض أوراقه الجافة.
سألتني: «أنتِ بخير؟».

لم أفهم سؤالها لأنني لا أعرف متى يكون الفرد منا بخير! لكنني
أيضًا لم أحاول أن أقلقها عليّ، بخاصة بعدما وقفت أمامي لأكثر
من ساعة صامتة في جلال، فأجبتها بهزّ رأسي بالموافقة.

نظرت ناحيتي كأنها ترى فراغًا لا بداية له ولا نهاية، عيناها ما
زالتا تحملان دموعًا محبوسة داخلهما، لم أعلّق خوفًا من انهيارها
من جديد.

بعد قليل أدارت ظهرها لي، للمكان، وعادت ترافق طريق
العودة بعدما لبّت دعوتي وأتت لرؤيتي.

وَقَع كَعْبُ حِذَائِهَا أَسْمَعُهُ يَخْفُتُ شَيْئًا فَشَيْئًا، بَتَمَهْلٍ وَتَرْدُدٍ
تسير، حتى غابت من أمامي، أمّا أنا فقد عدت من جديد إلى
الشاهد الذي يحمل اسمي منذ خمسة عشر عامًا.

غَزْلُ بِنَاتٍ

خَرَجَتْ لِتَوَّهَا مِنْ الْجَمْعِيَةِ التَّعَاوُنِيَةِ حَامِلَةً بِيَدَيْهَا عَدَدًا مِنْ
الْأَكْيَاسِ الْبِلَاسْتِيكِيَّةِ، كَتَفَاهَا انْحَنَّتَا إِلَى الْأَرْضِ وَانْحَنَى مَعَهُمَا
الظَّهْرُ تَلْقَائِيًّا.

وَجْهَهَا يَصُبُّ عِرْقًا وَوَجْنَتَاهَا تُشْعَعَانُ بِالْإِحْمَرَارِ، كَأَنَّهَا وَاجِهَتَا
لِلنَّوِّ صَهْدًا هَارِبًا مِنْ نَارِ الْفَرْنِ.

بِالكَادِ تَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ عَلَى الرَّصِيفِ بِانْتِظَارِ الْأُتُوبِيِّسِ.

تَمُرُّ مِنْ أَمَامِهَا طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ بَسَنٌ خَمْسَ سِنَوَاتٍ، تَرْتَدِي
فَسْتَانًا مَزْهَرًا بُوْرُودَ مَلَوْنَةَ بِالْأَحْمَرِ وَالْأَصْفَرِ وَالْبِنْفَسْجِي، وَفِي
قَدَمَيْهَا حِذَاءٌ وَرْدِي يَظْهَرُ مِنْ أَعْلَاهُ جُورْبٌ قَطْنِي قَصِيرٌ أَبْيَضُ
الْوَلْنِ. التَّفْتَتُ إِلَى الصَّغِيرَةِ، لِاحْقَتِهَا بَعَيْنَيْهَا مُتَبَعَّةٌ تَحْرُكَاتِهَا،
مَرَّتْ جَرِيًّا مِنْ أَمَامِهَا وَهِيَ تَمْسِكُ بِيَدِ أُمِّهَا ضَاحِكَةً، نَظَرَتْ إِلَى
أَعْلَى سَائِلَةً إِيَّاهَا أَنْ تَشْتَرِيَ لَهَا غَزْلَ الْبِنَاتِ، وَالْأُمُّ تَهْزُ رَأْسَهَا
بِالْمُوَافَقَةِ، فَتَجْرِي الصَّغِيرَةُ سَابِقَةً أُمُّهَا قَائِلَةً لِلْبَائِعِ: أَعْطِنِي مِنْ
هَذَا السُّكَّرِ.

يَقْطَعُ عَدَدًا مِنَ الْأَكْيَاسِ وَيِنَاوِلُهَا إِيَّاهَا ثُمَّ تَنَاوِلُهُ الْأُمُّ ثَمْنَهَا،
وَتَسِيرَانِ مَعًا نَحْوَ السَّيَّارَةِ الَّتِي كَانَتْ تَقْفُ بِجَوَّارِ الرَّصِيفِ.
يُهْرَعُ السَّائِقُ الْخَاصَّ مِنْ مَقْعَدِ الْقِيَادَةِ لِيَأْخُذَ أَكْيَاسَ غَزْلِ الْبِنَاتِ
ثُمَّ يَفْتَحُ الْبَابَ لِلطِّفْلِ الَّتِي تَمْسِكُ بِهَا بِأَدَبٍ رَافِضَةً أَنْ يَأْخُذَهَا
مِنْهَا، وَمِنْ وَرَائِهَا أُمُّهَا الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ بِالْمُوَافَقَةِ عَلَى طَلْبِ

طفلتها؛ أغلق الباب من بعدهما بانحناءة تهذيب وهدوء، عاد إلى مكان القيادة، ثم انطلقت السيارة وسط المارّة والسيارات وذابت مع حركة السير.

انتبهت لنفسها مبتسمة دون سبب واضح، كأن ما حدث كان يخصّها وحدها ولا يراه غيرها، لذلك استمرت تتابعهم حتى اختفوا تمامًا من أمامها.

سألها صوت من ورائها: «ماذا لو أتت لك الفرصة لتتبادلي العمر مع هذه الصغيرة؟ هل تقبلين؟».

- «حَسَب...».

- «حَسَب ماذا؟».

- «كم سأعيش من العمر، فقد تنتهي حياتها بعد عام أو اثنين، ولربما المتبقي لي بعد هذه الخمسين عشرون أخرى».

- «تهتمّين بالعدد! وماذا عن القيمة؟ كيف تثمّنين الوقت؟ ألا ترين سعادتها ولهوها البريء الذي تقضي فيه وقتها؟ وجهها الملائكيّ الغضّ بالحياة؟ حُنُوُّ أمّها عليها؟ عالمها الصغير السعيد الذي ظهرت دهشته على ملامحك كأنك لم تعرفيه في طفولتك ولم تصنعيه في شبابك، وتعضّين الآن أناملك ندماً عليه؟».

- «مظهري أخبرك بهذا أم قرأت الغيب؟».

- «بل راقبتُ عينيكِ تسيرانِ وراءها خطوة بخطوة».

- «لا تعلم شيئاً؛ لقد رأيتُ حياتي الآن، عُرِضتْ عليّ للمرة الثانية من خلال هذه الطفلة، كأن طفولتي أُعيدتْ ببطء أمامي، ذات الدلال والحنان وتحقيق الرضا في بساطة الأشياء، تسخير كل شيء من أجل إسعادي، لم تكن القيمة في المال، بل في ما تستطيع إيصاله من حب واهتمام وكثير من الحنان، فلم تمرّ القسوة أمامي ولو في هيئة نظرة عين غاضبة من والدي».

- «طفولة تُحسدين عليها!».

- «لدرجة أن لديّ اكتفاءً ممّا تعتقد أنني حرمت منه».

- «لماذا إذا نظرات الدهشة التي أصابتك في أثناء مرور الطفلة من أمامك؟».

- «بعض المواقف يُهدي إليك لحظات سعادة مسروقة من أحدهم صنع مشهدها خِصيصاً لك، فأنا على يقين أنها أعطت هذه السعادة اللحظية لأراها أنا وأتذكر جميل طفولتي، نسمة هواء في يوم حارّ لا أثر فيه لسحابة صيف، أو شربة ماء بارد على ريق يشكو الجفاف، فتأتيني لحظة منحة في «عزّ» المحنة، لتُشعرني أن حياتي حظيت بالقيمة والعدد».

لم تُكَلّف نفسها النظر إلى الخلف لترى مُحدّثها، بل تركته صاعدة إلى الأوتوبيس الذي جاء محملاً بازدحام رُكابه، اقتربت

من سُلِّم الصعود ثم تَرَدَّت قليلاً هل تصعد أم تنتظر أوتوبيسًا
آخر... برهة من التفكير تَوَقَّفت عندما أجبرها أحدهم على السير
قُدماً بعدما دفعها للصعود، نظرت حولها والحمل ما زال ثقيلاً
على يديها ولا مكان تضع فيه الأكياس أرضاً، ولا مقعد فارغاً تُسند
إليه ظهرها، فجأة رأت شاباً يُشير إليها من مقعده وراء السائق:
«تفضلي يا أمِّي، تعالي مكاني، أنا نازل المحطة القادمة».

دواءٌ للصداعِ

I

استيقظتُ من نومها وهي تعاني صداعًا شديدًا كعادتها طوال الأسابيع القليلة الماضية، نوبات من الآلام تأتيها يوميًا فتقُصُّ مضجعتها، وتظلُّ طوال اليوم تشكو عدم اتزانٍ يورِّقها، ويجعلها تعاني قلة التركيز في عملها وشؤون يومها.

انتهت ساعات العمل، وقبل زهابها إلى البيت توجهت إلى الصيدلية لتجلب حبوب الكالسيوم الذي أخذت آخر حبة منه مساء أمس، وفي الوقت نفسه سألت الصيدلاني عن مسكِّن للصداع الذي يصيبها في الصباح.

- «هذا المسكِّن مناسب جدًا لتخفيف ما تشعرين به من آلام، لكن انتبهي؛ ربما كنتِ ممَّن «يجزّون» على أسنانهم في أثناء النوم، وهذا له علاج آخر».

كأنه فتح نافذةً على ماضٍ تحاول نسيانه، فتذكَّرت الصوت الذي كان يُصدره طليقها في أثناء نومه وكيف كان يورِّق نومها، وقررت اختبار الأمر.

حملت تطبيقًا على هاتفها للتسجيل في أثناء النوم... كانت مُنهكة كعادتها، أكلت قليلًا من الطعام لتناول المسكِّن، ثم أخذت الفيتامين، أدارت التطبيق على وضعية العمل وغرقت في نوم عميق.

2

أتى الصباح سريعاً ونهضت على صوت المنبّه مع نوبة صُداع جديد، من فورها دخلت حمّامها، دقائق وبدأت في ارتداء ملابسها، ثم تذكّرت المسجّل!

بحماسة أسرعت إلى الهاتف، وباللمس ذهبت إلى تطبيق التسجيل لتتأكد من أنه سجّل.

شعرت بارتياح عندما نظرت إلى المُدّة التي سجّلها الجوال، كانت 11 ساعة و38 دقيقة و17 ثانية، ورغم ذلك تشعر أنها كالجثة الهامدة استيقظت ولم تنم إلا ساعة!

قرّبته من أذنها، وبدأت الثواني تعدّ مسرعة، تبعّتها دقائق ولم تجد سوى صوت الصمت، سكون مرعب، فأسرعت في تدوير المسجّل، للبحث عن صوت في أرجاء المكان، لكن حتى بعد مرور أكثر من ساعة ونصف لم تسمع أي صوت، بدأت تشعر بالاطمئنان النسبي، ثم بدأت تضع سيناريو آخر لصداعها، فقد قرأت من قبل أن للصداع ستة وثلاثين سبباً، منها الهرمونات وهي على وشك ما يُسمّى «سنّ اليأس»، فقد يكون ذلك سبباً.

سرّعته واختصرته قرب ساعتين، وضبطت وضعيّة الصوت على أعلى درجة، ثم ارتدت ملابسها خوفاً من أن تتأخر عن

عملها... حتى سمعت صوتاً كصوت كرز أسنان، تبعه صوت خافت كخطوات تسير في الغرفة! ارتعبت ثم اقتربت لتتعرف على الصوت.

- «هل أسير وأنا نائمة!».

أصابتها رجفة وخوف شديداً.

- «تُرى إلى أين كنت ذاهبة؟! وهل أكتفي بالسير داخل البيت أم خرجت إلى الشارع?!».

تركت ملابسها وجلست على السرير، قرّبت الهاتف مرة أخرى من أذنها، وعيناها مفتوحتان على آخر اتساع لهما، لكنها لم تكتفِ بذلك، بل وضعت سماعته في أذنيها لمزيد من مراقبة أي همس يحدث.

- «ربما في أثناء نومي طلعت إلى الصالة، (وضعت كفها على فمها) أو فتحت باب الشقة وخرجت منه!».

3

لا تصدِّقْ ما تسمع! تفكّر في إعادة تدوير المسجل إلى الوراء لتعود وتسمع الصوت الذي كان في البداية، لكن تخشى حدوث عطل ما فتضيع معه الحقيقة.

فترة من الصمت لدقائق قليلة ثم سمعت صوت خطوات تدخل الغرفة، كأن أحداً يسير فيها على أطراف قدميه.

ما سمعته لم يكن كزّ أسنان، بل هناك من فتح باب الشقة ودخل! لصّ دخل البيت أمس!

ذهبت إلى دولابها، فتحته، وجدت علبة البسكوت التي تضع فيها ما تواضع من ذهبها في مكانه لم يمسه بشراً.

زاد الأمر تعقيداً، ولم تعد تتحمل قلبها الذي يخفق بشدة، لدرجة أنها تسمع دقاته وترى صدرها يعلو ويهبط من شدة الخوف.

إذا بالخطوات التي تسمع وقعها بخفة على الأرض تقترب من الهاتف ويتضح صوتها أكثر فأكثر؛ في الغرفة أحد، جاء عند «الكومود» بجوارها، وأمسك زجاجة الدواء، ثم راح صوت الأقدام يخفت شيئاً فشيئاً إلى خارج الغرفة... دقيقة وعاد الصوت إلى

جوارها، وبصوت خافت جداً قال: «سامحيني يا إيناس، فقد اضطررتني إلى ذلك، لقد حاولت التأقلم مع الوضع الجديد الذي وضعتنا فيه منذ شهرين، ولكنني لم أفلح، هذه حبوب منومة جديدة، مؤكّد أن معدّل الكالسيوم لديك لم يتحسن، ولن تشعري بتحسّن في عظامك، لكن سامحيني، قريباً سأعيده إلى العلبة وأخلصك مني».

ابتعد الصوت قليلاً، لكنه ظلّ في الجوار، ثم سمعت حركة في السرير!

لقد نام بجوارها في مكانه السابق، ثم سمعته يقول: «أحسدك على قوتك، ما زلتِ كما أنتِ، جيّارة، رغم الطلاق تمارسين حياتك كأن شيئاً لم يكن، بينما أصبحت أنا مثل الطفل لا أستطيع النوم بعيداً عن سريرى بعد سنوات زواجنا الأربع عشرة!».

عاد الصمت يلفّ الغرفة، وتوقّفت الحركة فيها تماماً، دقائق وهي على وضعها في صدمة وذهول، لكنها فجأة هبّت من صدمتها على صوت كز أسنانه يملأ غرفة نومها من جديد.

عَبِيرُ الرُّوحِ

داخل كشك صغير وسط مركز تجاري هائل، وقفت فتاة
عشرينية مليحة القسمات، بزينة مُبالغ فيها وشعر أُطيلَ بأخَرٍ
مستعارٍ، فوق جفنيها رموش صناعية رخيصة الثمن، ظهر ذلك
من أثر الصمغ الملتصق بها.

على بعد ثلاثة أمتار تراقب بعينيها سيدتين آتيتين عن يمينها،
تسيران بجدٍ لافت، منهنمكتين في سرد حكاية، كأن لها بداية
وليس لها نهاية، قبل أن تصلا إلى كشك العطور. نهضت الفتاة
من مكانها، ورشّت قليلاً من الرائحة الذكية من زجاجة العطر
الفاخرة، على ورقة بيضاء صغيرة مستطيلة، وبسرعة مدّت يدها
إليهما قبل أن تصلا إليها.

- «جرباً هذا العطر الجديد من «كلارنس»، إنه مزيج من العود
الأسود والعنبر مع رائحة فاكهة الباباي».

مرّتا من أمامها، فأعادت الجملة: «جرباً هذا العطر الجديد من
«كلارنس»، إنه مزيج من العود الأسود والعنبر مع رائحة فاكهة
الباباي».

لكنهما أكملتا سيرهما بذات الجدية مُكملتين الحكاية، كأنها
شفّافة كالهواء، لا ملامح لها ولا رائحة.

بعينيها ظلت تراقبهما كظلهما، وتتابعهما بنظراتها، ملامحها
حملت التشتت والصدمة، كيف وهي قريبة منهما لم تلمحها، ولم

تكلّفا نفسيهما الالتفات إليها ولو بنظرة، ولو برفض ما تعرضه عليهما! عيناها بهما أسى واضح وإحساس بالانكسار.

وقبل أن تنزل عينيها إلى الأرض، وقبل أن تُلقِي بتلك الورقة ذات الرائحة الذكية في القمامة، وقبل أن تعود للجلوس على الكرسي البلاستيكي الذي يتوسط الكشك في انتظار أخريات قد يجئن في صباح أول يوم من الأسبوع، وأول يوم عمل لها في المكان، أتها امرأة أخرى عن يسارها، سريعة كالبرق، مبتسمة كأنها الشمس في أحد صباحات ديسمبر، وأخذتها منها، ثم وضعتها مباشرة على أنفها، مع شهيق عميق، كأنها تتنفس روح الحياة، ثم اتسعت ابتسامتها في وجه البائعة قائلة: «شكرًا».

ابتسمت الفتاة بوجه صبوح: «العفو».

هُدًى الْيَمَامِ

نَسِيتُ أَمْسَ أَنْ أَضْبِطَ الْمَنْبَهَ عَلَى السَّادِسَةِ صَبَاحًا، لَوْ حَدَثَ ذَلِكَ قَبْلَ شَهْوَرٍ لَمْ أَكُنْ لِأَهْتَمُّ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ كُنْتُ سَأَطْمَنُّ إِلَى فِكْرَةٍ أَنْ عَقْلِي الْبَاطِنُ رَفُضَ إِيقَاضِي مَبَكَّرًا، لَكِنْ هَذَا الْعَامَ تَحَوَّلَتِ الْأُمُورُ إِلَى الْأَفْضَلِ.

كَانَتْ حَيَاتِي مُمَلَّةً؛ يَمْلُؤُهَا السَّأَمُ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي انْتَقَلْنَا إِلَيْهِ -بَعْدَمَا تَرَقَّى زَوْجِي فِي عَمَلِهِ الْفَنْدَقِيِّ- إِلَى مَدِينَةٍ يَصِفُونَهَا بِالْهَدْوَى، تَبْعَدُ عَنِ الْعَاصِمَةِ بِأَكْثَرِ مِنْ مِئَةِ كِيلُومِترٍ، طَقَسَهَا حَارٌّ بِاسْتِثْنَاءِ شَهْرَيْنِ نَذُوقِ فِيهِمَا طَعْمِ الْإِعْتِدَالِ، وَأَحْيَانًا الْبُرُودَةَ وَقَلِيلًا مِنَ الْأَمْطَارِ، تَتَّبِعُ ذَلِكَ عَوَاصِفُ فِي شَهْوَرِ الْخَرِيفِ وَالرَّبِيعِ مَا بَيْنَ خَفِيفَةٍ وَأُخْرَى لَا تَعْرِفُ الْمَزَاحَ، حَتَّى يَهْدَأُ الطَّقْسُ تَمَامًا مِنْ عَنَفْوَانِهِ، وَيَسْتَسَلِمُ لِقِيْظِ شَمْسِ الصَّيْفِ وَجَفَافِهِ مِنْ جَدِيدٍ.

أَحْبَبْتَنِي ذَلِكَ، وَزَادَ عَلَيْهِ أَنْ الْمُجْمَعُ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ وَيَسِعُ نَحْوَ عَشْرِينَ عَائِلَةً، لَا يَسْكُنُ فِيهِ سِوَى سِتِّ عَائِلَاتٍ فَقَطْ، وَهَوَّلَاتِ السِّتِّ لَيْسَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِتَنَاوُلِ فَنْجَانِ شَايِ صَبَاحِي، وَلَا لَجَلْسَةِ سَمْرِ عَائِلِيَّةٍ فِي الْمَسَاءِ، الْكُلُّ يُغْلِقُ عَلَيْهِ بَابَهُ، كَأَنَّ هُنَاكَ مَجْهُولًا يَخْشَاهُ، لَكِنْ فِي النِّهَايَةِ اسْتَسَلَمْتُ لِلْأَمْرِ، فَأَنَا مِنَ النِّسَاءِ الْمُرْتَبِطَاتِ بِعَائِلَاتِهِنَّ.

الْمَدِينَةُ الَّتِي انْتَقَلْنَا إِلَيْهَا هِيَ إِحْدَى الْمَدَنِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي حُطِّطَ لَهَا بِعَنَآيَةِ قَبْلِ بِنَائِهَا، مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْبُيُوتِ الصَّغِيرَةِ الْمُرْتَاصَةِ، بَعْضُهَا بِجَوَارِ بَعْضٍ، بِطَرِيقَةٍ مَعْمَارِيَّةٍ أُنِيقَةٍ، وَفِي النَّاحِيَةِ

المقابلة لها حديقة مترامية الأطراف، صُمَّتَ بجمال لغسل أعين ساكنيها، بمظهرها الأنيق، وإن لم نكن الأوفر حظًا بين السكان، فقد كانت النوافذ الأمامية للبيت تُطلُّ على شارع فرعي يظهر منه جزء فقط من هذا المنظر البديع، في حين تطل المساحة الكبرى على الأسفلت ومساحة شاسعة من الرمال.

بدأت الحكاية بشكل مأساوي، بينما كنت أقف من وراء باب المطبخ الزجاجي أراقب سُحْب الخريف، التي كانت رمادية مُقْبِضَةً، وتُنذِرُ بمزيد من العواصف، حاولت أن أتجاوز الأمر بمراقبة الطيور التي كانت تدور في جماعات، تطير إلى أعلى في السماء ثم تعود وتقف على شجرة البيت الأمامية، فأسمع هديرًا خافتًا لليمام، وزقزقة العصافير، تلك كانت تسلتي الوحيدة، في أثناء توصيل أولادي للمدرسة في الصباح وإعادتهم منها بعد الظهر.

تبع ذلك لساعاتٍ رياحٍ رملية، ثم أمطار، فاختربنا بالداخل حتى انتهت تمامًا تلك العاصفة، وفي اليوم التالي خرجتُ إلى الفناء الخارجي للبيت لمعرفة الخسائر، ومعرفة مصدر أصوات التكسير التي سمعتها تفرقع بالأمس، وإذا بي أجد الدولاب الصغير الموضوع للخزين قد سقط بكل ما فيه، وكل الأواني والزجاجات الفارغة محطمة على الأرض، وكذلك الشواية سقطت وتناثرت عدتها والفحم على أرضية الباحة.

وعلى بُعد خطوات من باب البيت عُشَّ يمام مع بيض صغير مُفَتَّتْ وفارغ، يلي ذلك يمامة مُلقاة دون رأسها! أفزعني بشِدَّةٍ منظرها وقَبَضَ قلبي، وناديت زوجي بسرعة ليكرمها، ثم نظرتُ إلى أعلى، إلى الشجرة، سمعت صوت يمام وعصافير، وأتاني إحساس أنهم يبحثون عن طعام، وبسرعة وضعت تحت الشجرة قليلاً من حبوب البرغل والقمح الذي كان متوافراً لدي في المطبخ، ثم بدأت مع أولادي إصلاح الفوضى التي عمَّت المكان. بعد ذلك ذهب كلُّ إلى حاله، وتوجهت أنا إلى المطبخ لتجهيز الفطور، كأن شيئاً لم يكن.

دقائق وأصبح الفطور جاهزاً، وأنتظر فقط غليان ماء الشاي على النار، فنظرتُ من باب المطبخ إلى الحبوب الموضوعة تحت الشجرة، وجدتُ يمامة وعصفوراً اقترباً بحذر، أكلًا قليلاً ثم طارا. غمَرْتَنِي الراحة، فتلك فرصتهما للتزوُّد بالطعام، فقد غابت الشمس أيضاً اليوم، ولا تزال حركة السحب سريعة، وتجمع بعضها فوق بعض، حتى أصبح لونها رمادياً قاتمًا ويبشُرُّ بمطر وزواج جديدة.

على السور لفتني ظلُّ صغير، وصوت دقيق، فرأيتها أمامي تسير على مهل على سور بيتنا. وقفتُ وحرَّكتُ رأسها يَمَنَةً وَيَسْرَةً، كأن عينيها تبحثان عن شيء ما، ثم طارت ونزلت على الأرض أمامي، تروح وتغدو في محاولة لاكتشاف أمر ما... أقلُّ

من دقيقة وهي على هذه الحالة، تقترب بمنقارها إلى الأرض، ثم ترفعه، تسير خطوات وتعود للنقر من جديد، ثم طارت إلى أعلى، ووقفت على شباك غرفة النوم في الدور العلوي، ونزلت من جديد، حركاتها جعلتني أنتبه لها وأتساءل: «لعلها تبحث عن ماء!».»

بتلصص وهدوء وضعت ماءً في طبق بلاستيكي صغير في الخارج، ودخلت مسرعة، لكنها بمجرد أن سمعت صوت الباب يُفتح طارت، لم أعرف هل تصرّفت خطأ! تمنيت لو استطعت فهم ما تريده.

ربما جائعة؛ أتيت بالحَبّ الموضوع تحت الشجرة وجعلته وسط الممر. كانت تراقبني من أعلى، وبمجرد أن شعرت بحركتي طارت من جديد. خافت، ومن الطبيعي أن تخشاني. من الأفضل أن ألتفت إلى شغل البيت وأترك لها المجال لتشعر بالأمان، وسوف تأتي فطورها هي الأخرى.

ناديت الأولاد ليأخذوا مني الصحون، وحملت صينية الشاي، وذهبنا جميعاً لتناول الفطور.

مضى نحو ساعة وأنا أحكي لزوجي وأولادي حدث اليوم، وكيف أن الطقس هنا قاسٍ، لا يرحم حتى الطيور، متدمرة من كل أشكال الجفاف التي نعيشها هنا، ويؤيدني أولادي برغبتهم

في العودة إلى حياتهم قبل المجيء إلى هنا، وزوجي صامت وملامحه لا تشعر بالراحة من حديثي.

انتهينا جميعنا من الطعام ومن الحديث، طلب مني زوجي أن أجهّز له القهوة، فعدت إلى المطبخ وتذكرت الضيفة الجديدة، فنظرت لأطمئنّ عليها، فوجدتها تنقر حبات القمح في نهم شديد.

شعرت بحدث مُهمّ وجديد بدأ يأخذ اهتمامي، ولمعت في رأسي الفكرة: ما المانع أن أجهّز لها يومياً بعض الحبوب؟ فمهما شُغلتُ فيوجد دائماً وقت لعمل شيء ما.

أيام الإجازات الأسبوعية على غير العادة تمرّ سريعاً، بخاصة مع زيادة أعباء الأولاد ومتطلباتهم، هم عليهم ترتيب غرفهم، وأنا مهمّتي الأساسية تتلخص في وضع ملابسهم في الغسالة، وتجهيز طعام الوجبات الثلاث، وبينما كنت أجهّز سفرة الطعام ناداني ابني: أمي، تعالي انظري!

كانت يمامة لا أعرف إن كانت هي نفسها أم أخرى تشبهها، تجلس في نفس المكان عند نافذة الغرفة، تنظر يَمَنَةً وَيَسْرَةً، ثم حرّكت رأسها سريعاً وطارت وحطّت على الأرض، بهدوء وثقة تسير نحو الحبوب، وبدأت في نقر ما في الصحن والتقاطه.

أعتقد أن الأمر يستحقّ الذهاب للتسوّق، وشراء كيس كبير من الحبوب للضيوف الجُدُد.

في صباح اليوم التالي وضعت قليلاً منه، وذهبت لإيقاظ الأولاد وإيصالهم إلى المدرسة، وعندما هممت بالخروج من البيت لإيصالهم دخلت المطبخ للتأكد من أنني أقفلت بابه بالمفتاح، فوجدت ثلاث يمامات يتناوبن على الحبوب! غمرتني السعادة، وكان هذا الحدث قد صنع يومي.

أصبحت عادة يومية وفي مواقيت معلومة أضع لهم ما يحتاجون إليه من ماء وغذاء، ثلاث وجبات يوميًا، صباحًا في السادسة، ثم عند الظهر، ووجبة أخيرة قبل غروب الشمس، بعدها يذهبن للنوم في مكان أجهله.

اليوم استيقظت متأخرة عن مواعيدي بعشر دقائق بعدما أطفأت المنبه وعدت للنوم دون وعي، فقممت مفزوعة ومباشرةً توجهت إلى المطبخ، ملأت الوعاء الذي أضع فيه أكلهنّ، وكالعادة فتحت الباب بهدوء ونثرت الحبوب في الهواء، وسرعان ما استقرت على الأرض. كُنَّ يقفْنَ على سور البيت ولسان حالهن يتساءل: أين كنتِ؟! ولماذا تأخر فطورنا؟ وكيف هان عليك تركنا دون طعام لهذا الوقت المتأخر من الصباح!

رددت بصوت خافت: آسفة والله، لكنه دواء الإنفلونزا هو ما جعلني أتأخر عليكم اليوم.

وكنوع من التكفير عن ذنبي أجزلت لهن العطاء، ودخلت

مسرعةً لإعطائهن فرصة تناول إفطارهم.

متعتي الجديدة أصبحت في النظر إليهن من خلف باب المطبخ، أراهن يحططنَ على الأرض، مجموعة كبيرة تتسابق للحصول على غذائها، يلتهمنه التهامًا، دون إيذاء بعضهن بعضًا، وبعدها ينتهي أحدها من طعامه يطير حيث البراح.

أحياناً كنت ألاحظ أحدهن، رقبتة منتفخة ويصدر صخبًا، جاريًا وراء آخر، ليبعده عن بقعته، وبالفعل طار بعيدًا عنه إلى نافذة الدور الأول، تَوَقَّفَ هناك لثوانٍ، ثم عاد لكن من جهة أخرى، كنوع من التمويه الناجح، وتناول طعامه بهدوء، وهدأ الآخر في مكانه.

مواقف كثيرة أراها من مكاني، كانت تدفني إلى تأمل عالمهم، أتذكر أحدها، عندما كنت أنظف ما تبقى في الحوض من أواني الغداء، سمعت صوت هديل في الخارج، يمامة أتت، وأخذت تحوم في المكان باحثَةً عن حبوب، وتنقب عنه بين بلاط الأرض، وأنا أتابع المشهد، لا أرى أثرًا للحبوب، لكنها كانت تنزل بمنقارها بين البلاط تنقب، ثم ترفع رأسها وتأكل، حتى اعتقدت أن هناك كثيرًا من الحبوب المخبأة، فهي تجد غذاءها بسهولة وتبحث عن جديد... دقائق وهي على هذه الحال حتى اكتفت وطار.

أمس كان لا بد لي من الذهاب إلى السوق القريبة لشراء الحبوب لهن، لكن للأسف لم أتمكن من ذلك معتمدةً على قليل مما تبقى

من أمس، فتحت الكيس الكبير لم أجد شيئاً!

ربما أحد أولادي وضعه لهم ولم يخبرني!

بدأت اليمامات في الوفود في موعدهن المعتاد يتوقعن طعامهن. لم أعرف ماذا أفعل! يدُرُن في الساحة بحثاً عنه، حتى وصلن إلى أماكن لم يصلن إليها من قبل، واقتربن من الباب الذي كُنَّ يخشَيْن أن يأتينه، قلةً منهن حصلت على القليل المتوافر بين الشقوق وبين مربعات البلاط، يبحثن لعل هناك حبة منسية، أو على وَشْك أن تُزهر، لكن دون جدوى، فترك أغلبهن المكان وطرن سريعاً حيث السماء.

كان موقفاً حزيناً، أربكني وجعلني أبحث بالداخل عن أي حبوب في البيت. تذكرت أول مرة وضعتُ لهُن البرغل، وجدت قليلاً منه وأيضاً قليلاً من القمح، فأسرعت بفتح الباب ونثرته بعشوائية في الخارج وأغلقت الباب.

ملأني هدوء وسلام رُوحِي عندما رأيت عودتهن من جديد إلى الباحة، وأخذن يحططن بالعشرات على الأرض واحدة تلو أخرى، كأن حفلة قد بدأت للتو، يتناولن طعامهن القليل بنهم وخطواتهن مسرعة، من يأتي من أول الباحة إلى آخرها من هنا وهناك يأخذن طعامهن ويتناولنه على عجل.

... إلّا واحدة فقط، أخذت تُبعد كل اليمام عن الطعام الذي

أمامها، وتواجههن بمنقارها وسيلةً لتهديدهن ودفعهن للطيران،
بعضهن كان يستجيب ويطير، وبعضهن كان يترك لها المكان
ويأكل في مكان آخر حتى يتفادها، لكنهن كنَّ أكثر نظامًا،
ينتهين من الطعام الموضوع أمامهن، ثم ينتقلن خطوة أخرى إلى
الأمام يأكلن آخر حتى شعبن تمامًا، وطرنَّ جميعًا إلى عالمهن.

مرّت الأسابيع والشهور وأصبح لديّ سرب جميل من اليمام،
يأتيني في مواعيد معلومة، ثلاث مرّات يوميًا، يأتين مع الشمس،
وقبل غيابها يذهبن، يمارسن طقوسًا يومية وأعيش معهن
تفاصيلها، حتى أصبحن نافذتي إلى الحياة الجديدة، وموضوع
الحديث على طاولة الطعام، والتندُّر بتفاصيل أفعالهن اليومية،
حتى صار تعلُّقي بهن موضوعًا للنقاش وللغيرة -أيضًا- وسط
عائلتي.

الآن قاربت الساعة على منتصف الليل، أفكّر في الغد وتفاصيل
جديدة ربطتني بالمكان. ضبطت المنبّه على السادسة صباحًا
منتظرة يومًا آخر مع هديل اليمام.

الْكَمَالُ الْمَفْقُودُ

كان التيه الذي تعيشه محفّزاً له ليتبعها أينما ذهب، لا يعلم إن كان هذا إعجاباً أم حُبّاً، أم مجرد رغبة في القرب منها.

أما هي فلاحظت، لكنها لم تُعِر الأمر اهتماماً، ولم تهمله.

وجدت أنه من الجميل أن تجد نفسها محاطة بشغف أحدهم نحوها، هي المُهملة داخل مملكتها من زوجها وأولادها، تؤدّي دور الأم على أكمل وجه، والزوجة قدر استطاعتها.

دائرة لا منتهية وهي تدور بداخلها، تلهث وراء المتطلبات اليومية بلا هوادة، فما الذي يَضِيرها لو تركت أحدهم يُعَجِب بها من بعيد، يُشعرها بأنها امرأة تحمل ملامح وصفات تجذب الآخر إليها، بعدما فقدت ذلك في محيطها! فكان كقوس يعزف على آلة كمان فقدت موسيقاها منذ زمن، تستمتع باللحن ولا تبادله العزف، شيء حيّ أخضر، نابض بالحياة، وسط صحراء عمرها ومسؤولياتها التي لا تنتهي، يكفي أنه أعادها من جديد للوقوف أمام المرأة لتبحث عن أثر للجمال في ملامحها، واهتمام في هيئتها.

في إحدى الأمسيات سألت زوجها: «أما زلت تراني جميلة؟».

- «بالطبع، تماماً كأول يوم رأيتك فيه في سُبوع ابن اختي. تتذكّرين؟».

- «نعم، أكيد».

- «نسيّت تفاصيل ذلك اليوم؟».

بخجل تجيبه: «تقريبًا».

- «لكني أتذكر جيدًا كل شيء كأنه حدث أمس، ملامحك، تسريحة شعرك، ألوان ملابسك...».

- «حقًا؟!».

- «لم تخنّي ذاكرتي، شعرك كان مصفّفًا ومسترسلاً على ظهرك بلونه البنيّ مع خصلات نحاسية تزيد لمعته وجماله، كنتِ ترتدين تنورة قصيرة زرقاء، وبلوزة وردية اللون، وصندلاً صيفيًّا أبيض في وسطه حلقة فضية اللون، وفي أذنيك حلق «حُمّصة فضي». أتتذكرين أول حوار دار بيننا؟».

تحاول لكنها تطرق برأسها ناظرة إليه كأنها تعاني دون فائدة.

- «سألتك: الآنسة من صديقات هدى؟ أتتذكرين بماذا أجبت؟».

- «نعم، قلت لك: أيوه».

- «لا، قلت لي: «ما شأنك أنت إن كنتُ من صديقات هدى أو أقارب ممدوح؟» زوج أختي».

- «أيعقل؟! أجبتك بهذه الطريقة المستفزة؟!».

- «وهذا بالضبط ما جدّبتني إليك».

لم تكوني تهابين أحداً، قوية الشخصية، هجومية مع الغريب، حتى وأنتِ بمفردكِ في محيطه، وبين أهله، جميلة، ومعتدّة بنفسكِ وسط الجميع، يومها نظرتُ إليكِ وقلت: تلك التي سأكمل معها مشوار حياتي.

ثم أكمل بعد لحظة صمت: «لكن... حدث شيء ما في منتصف الطريق غيركِ، أصبحتِ أكثر استسلاماً، وكما يقولون جسداً بلا روح».

- «ندمت؟».

- «ليس بالضرورة أن يكون الندم هو رد الفعل المناسب، لكن في أوقات كثيرة كنت أنظر إليكِ وأتساءل أين ذهبتِ، ومن أخذكِ مني، وهل كنت مسؤولاً عن ذلك... لكنني كنت على يقين أنكِ ستعودين يوماً إلى سابق عهدكِ. وهذا ما حدث، فمؤخراً، تعملين كل شيء بحب، قوية، متفائلة، متفانية في إسعادنا، عينكِ عاد لمعانُهما، وروحكِ بسطت وجودها على حياتنا من جديد. ملاحظُ أنا من بعيد، أرى تغييركِ، متلهفٌ على اكتماله، ولكنني لم أحاول أن أناقشكِ أو أسألكِ عن سببه حتى لا تفقدي عفويتكِ من جديد».

سكنت، تحاول الخروج من حالة الأضداد التي لفت إحساسها، وهو أمامها، سعيداً بها كأنه يراها لأول مرة في سبوع ابن أخته.

يَوْمَ تَعَامَدَتِ الشَّمْسُ
عَلَى وَجْهِ رَمْسِيَسِ الثَّانِي

تجربة زواج فاشلة من رجل شَبِقَ بدلت حياتي، كان يريد إنجاب أكبر عدد من الأبناء لتأكيد فحولته، وكنت أبحث أنا عن العاطفة، ولو قُبلة أو حضناً كبدائية لِمَا يريده، لكنه لم يَكُن يملك الوقت للاهتمام بما أريد، وكان الزواج هو الشكل الذي قَنن من خلاله ملذاته وشبقه، إطار اجتماعي يجعل منه رجلاً يُشهد له بالرجولة والقوة، ولو لم يبالي برغبات زوجته أو متى يطلبها، فهو يدرك تَسَيُّده، وأن كل شيء لا بد أن يسير وفق هواه.

سألته يوماً: «وإذا قلت لأ؟».

- «سوف أغضب عليك، وإذا غضبتُ فستلعنك الملائكة، وإذا لعنتك الملائكة فسيكون مصيرك الطرد من رحمة الله».

كيف حياة أن تستقيم مع رجل يهددني مشيراً بأصبعه،
وبيديه مفتاحاً الجنة والنار؟!

جرت الحياة بيننا لشهور، بعدها عدتُ إلى أمي باكية، في حين أرسل إليها قائلاً: «ابنتك باردة، لا تصلح للزواج».

لا أدري إن كنت اتخذت قراراً متسرّعاً بعدم الزواج مرة أخرى، أم كنت من الذكاء بحيث أدرك مبكراً أن المشكلة في المنظومة ككل! وكلما شاهدت زوجين «تَحَسَّرت» على علاقتهما، متخيلة أنه في أحسن الظروف أحدهما فقط هو التعيس، أما الآخر فيعيش من أجل تربية الأولاد.

فأصبحت الحرية هدفَ حياةٍ وغرامًا أعيش وأعمل من أجله.

بعد فترة وجيزة انتقلت للعيش بمفردي، بعدما وجدت شقة صغيرة في حي الزمالك.

تعليمي الجيد أتاح لي وظيفة براتب معقول، والفراغ الذي كنت أعيشه ساعدني على أن ألتحق بعدد من الدورات المجانية في عديد من السفارات الأجنبية، حتى أصبحت وجهًا مألوفًا لكثير من الأجانب العاملين فيها، ولعدد من المثقفين المصريين، ونسيت تمامًا فكرة الزواج.

... حتى ارتبطت بدومينيك، شاب فرنسي جاء إلى مصر لرؤية تَعَامُد الشمس على رأس رمسيس الثاني، وبعدها قرر الاستقرار فيها، وكتب لي القدر أن أقابله في شُبَّك تذاكر القطار إلى أسوان بمحطة مصر.

أه! نسيت أن أعرفكم نفسي. اسمي إلهام، وسِنِّي خمسة وثلاثون عامًا، كنت أمامه عند شبك التذاكر، وسألت الموظف المسؤول عن الوسيلة التي أذهب بها إلى معبد أبو سمبل، رغم أنني أجريت بحثًا على الإنترنت، لكن كنت أريد أن أتأكد من صحة معلوماتي.

لم يكن دومينيك يعرف من العربية إلا قليلًا، لكنه عرف وجهتي من كثرة ترديدي اسمي أبو سمبل ورمسيس الثاني، كما قال لي

لاحقًا. أنهيت حديثي مع موظف الحجز، وتركت له الشباك. وقفت في الجوار أشعل سيجارة، وتلقفتني نظرات الازدراء من بعض المارة، ممن يظهر عليهم أثر التدخين، حتى جاء هو، ابتسم لي بحذر وأخذ يلوّح بيده لي كأنه أصمّ، وإشاراته وضحت أنه يريد سيجارة.

ابتسمتُ وأخرجت سيجارة وأشعلتها وأعطيتها له، شكرني بذات الطريقة، وبلسان فرنسي قال لي: «ميرسي».

أجبتُه بابتسامة: «ميرسي بوكو».

سألني بلغته: «أتحدثين الفرنسية؟».

أجبتُه أنا هذه المرة مستخدمة يدي للإشارة بـ«لا»، أخبرته في أثناء تدخينه السيجارة أنه كان لديّ صديق فرنسي، تعرفت إليه في أثناء حضوري إحدى الدورات التعليمية في السفارة الفرنسية، فتعلمت منه بعض الكلمات التي لم يتبقّ منها في ذاكرتي سوى عدد قليل، مثل: معزة، كلب، نعم أنا مريضة، أنا بنت، أنت ولد...

وضحكت، وضحك هو الآخر.

أخذ بكلمات عربية مهترئة، وإنجليزية مهلهلة، وفرنسية جذّابة، مستعينا مرة بيديه وأخرى بعينيه ثم بحركاته، يحدثني، وأنا مبهورة ومستمعة بحديثه.

ركبنا القطار معاً، رويت له كيف تورطتُ في هذه الرحلة، وإلا كان من المستحيل أن أقوم بها من تلقاء نفسي.

أما هو فقال لي إنه يخطط لها سنويًا، وعندما سألته لماذا، انفجر ضحكًا، مؤكدًا لي أنه مهما كان مشغولاً فلا يستطيع أن يفوتها، فهي معجزة هندسية لا تحدث إلا في معبد أبو سمبل.

ضحكت من سذاجته، وتندّر هو على جهلي.

أصرّ على أن يدعوني إلى هذه الرحلة، اعتذرتُ إليه معللةً بأني مدعوّة من أصدقاء ينتظرونني هناك، وقتها عرض عليّ أن ينضمّ إلينا، فوافقت.

أخبرني عن إحساسه عندما وقعت عيناه عليّ، كأنني من نساء الحواديث اللاتي قرأ عنهن في قصص ألف ليلة وليلة، أو إحدى ملكات مصر القديمة التي هربت من زمانها وأنت من أجله، أمّا أنا فقصصت عليه قصة زوجي، وأن أهمّ ما يميزه أنه لا يتشابه مع شخصية زوجي التعسة، ولا مع من قابلتهم، ولم يحاول أي منهم أن يرى روحي كما رآها هو.

أما أنا -خلال نصف اليوم الذي هو عمر رحلة القطار من القاهرة إلى أسوان- فرأيت فيه الرجل الذي تمنيتُه، مثقّفًا، مُحبًّا للحياة، مهتمًّا بشريكته، يتعامل مع حُرّيّتي كما لو أنها سبب في ارتباطه بي وحبّه لي، طريقته الخاصة والسهلة في العبور

إلى مشاعري، وتَصْرُفاته تسير جنبًا إلى جنب مع إحساسه بي، دون تناقض غير معلومة أسبابه، إنسان يتعامل بفطرة لم تشوّهًا أمراض أو عقد نفسية.

وفي الطريق إلى أسوان اتضحت الخطوط العريضة لعلاقتنا، ماذا يحب كل طرف، وما الذي لا يطيقه، اختلافنا في أشياء واتفقنا على مبدأ الحرية والاحترام الذي يجب أن يحيط أي علاقة.

استمر الضحك والحديث المتواصل في كل شيء، عدد من اللغات واللهجات مع إشارات من هنا وهناك لتوصيل المعلومة.

تَعَرَّفْتُ أيضًا على تفاصيل حياته في القاهرة، عندما جاء زائرًا منذ ستة أشهر ولم يتركها، يعمل في إحدى الجمعيات الحقوقية، وله أصدقاء أجنب وقلّة قليلة من المصريين، وحكيت له عن طبيعة عملي وكيف أني أزاول أكثر من وظيفة، الأساسية في الصباح، والثانية في الفترة المسائية حتى العاشرة مساءً.

لا نعرف كيف مضى الزمن بتلك الخفّة سريعًا لنصل إلى أسوان، حملنا حقائبنا متوجّهين إلى الفندق الذي حجز لي الأصدقاء فيه، وكانوا في انتظارنا. استقبلوني ودومينيك بضجة الترحاب، واتفقوا على أن يتركونا ساعتين نرتاح قليلًا، وقرب الفجر نستيقظ ثم نتوجه إلى المعبد قبل الرابعة صباحًا.

كانت كل الترتيبات تسير بدقّة غير معتادة، ربما لأن الحدث

فرض ذلك، كونه يعتمد على عقرب الدقائق.

تَوَجَّهنا في الظلام إلى طريق أبو سمبل، وكانت تسير معنا مجموعات صغيرة من الأجانب، وبعض المترجمين وقليل من المصريين وأبناء أسوان، نحو ثلث الساعة نسير بهوادة لا تخلو من الحماسة، وأمامنا متَّسَع من الوقت قبل ظهور النور، حتى توقفنا مباشرة أمام المعبد. أحاديث جانبية، وكل فرد هنا يطمئنُّ على أن كاميرته تعمل، سواء الفوتوغرافية أو الفيديو، وكان النور قد بدأ في السطوع، والأعْيُن معلقَةٌ بين لحظةٍ وأخرى في السماء، ومرشد هنا ومرشد هناك يشرح في الوقت المتبقي لسطوع الشمس.

... بينما دومينيك من آن إلى آخر، يمسك يدي بقوة، أو يقترب بابتسامة تؤكِّد وجوده معي، وفي يده الأخرى كاميرا فيديو يحاول إمساك هذه اللحظات الجميلة، وفي جيبه دفتر من الورق الأبيض الصغير وقلم يدوّن شيئاً ما، ثم يضعه من جديد في جيبه ويعود ليمسك الكاميرا، ظلّ هكذا يبدّل بين الكاميرا والأوراق في محاولة منه للإمساك باللحظة من جوانبها كافة، ثم يقترب ليسألني عن شعوري.

صمت مَهيب لَفْنَا جميعاً مع اقتراب شروق الشمس، نوع جديد من الصلاة، ونُسُك لم أعتَّده، ربما جعلني هذا الحدث أفهم سبب عبادة قدماء المصريين للشمس، وتقديسهم لها، من

ملكوت الهيبة، والإيدان بولادة معجزة جديدة كل يوم، وبرهبة غير معهودة، كنا ننتظرها، وما بين الظلمة الشديدة حتى بداية النور كنا ننتظر مجهولاً واثقين من حضوره، مع تسارع دقات قلبي انتظاراً لسطوع كامل للشمس، لفتني الجمهور الذي أتى، وكيف أن ملامحهم تفيض بالشغف، وقلوبهم معلقة بالمكان، الأصوات من حولي هامسة، تخاف خدش الحدث، حتى بدأت خطوط الشمس في الشروق وبدأت أصوات الحضور في الارتفاع بانبهار: «والااا»، تكرر عشرات المرات، حتى فرض الصمت وجوده وبقته سقطت الشمس بأشعتها الحمراء القانية على رأس رمسيس الثاني، كأنها تضع على جبينه قبلة الصباح ونحن من بعيد نتأمل بدهشة وتحير، كأنّ على رؤوسنا الطير كما يقولون. دقائق وتحركت الشمس نحو التمثال الثاني يمين رمسيس الثاني، ثم ببطء قليلاً نحو التمثال على اليسار، بينما ظلت خلال العشرين دقيقة مدة تعامدها لم يترك نورها وجه رمسيس الثاني، حتى تركت المعبد متوجهة إلى دورانها اليومي والمعتاد كمثل أي يوم كان.

لا أعرف السبب الذي جعلني أنظر إلى دومينيك في هذه اللحظة وأطلب منه أن يضمّني إليه! لم تُسعفني لغتي الفرنسية، واكتفيت بإشارة مني.. ضممتُ يديّ واحتضنت نفسي، فاقترب مني وضمّني، كأنه لم يكن يحتاج مني إلى وصف، وكانت أشعة الشمس تملأ الأركان، وتراءى لي لون عينيه الأزرق الصافي،

ووجدتني أرتمي بين ذراعيه، كأني أضع بينهما كل عمري، وبداية جديدة لحياتي معه، المعجزة التي أبدأ بها الحياة معه.

استمرت علاقتنا لأكثر من عامين، امتلاً وقته وحياته بعديد من الأنشطة التي كنا غالباً نمارسها معاً، كان مُعَرِّمًا بمنطقة وسط البلد مع المثقفين وفنّاني الدرجة الثانية، وتنوعت سهراتنا ما بين كافيتيريا الأكسلسيور، ومطعم وبار إستوريل الذي كان يجد راحته فيه كثيرًا، وحكى لي ارتباطه بالمكان، لأنه قرأ يومًا أن الممثل روبرت تايلور زاره في أثناء تصويره فيلم «أبو الهول الزجاجي»، ووضع إمضاءه على المينيو الخاص بالمطعم، كحدث يستحق الانتباه.

أصبح يُجيد اللهجة المصرية ويُلقِي المُرَح، ويميّز أفضل عربات بيع الفول ومحلات الشراب الفرنسي المعتق، وأصبح حضورنا تعامد الشمس على رأس رمسيس الثاني طقسًا سنويًا، يُعيد لحياتنا ألق وإمكانية تحقيق المعجزات.

عصيرُ برتقالٍ

يومياً يأتيها في السرير بصينية عليها كأسان من عصير
البرتقال وجوارهما وردة حمراء يافعة قُطِفَتْ لتوها.

جلس بجوارها...

- «صباح الخير يا حبيبتي».

- «صباح النور يا روعي».

- «كيف كان نومك؟».

- «تمام، وأنت؟».

- «هادئ».

تناول عصيره على دفعات، ثم تركها وذهب إلى الغرفة
المجاورة ليرتدي ملابسه الرسمية تاهباً للذهاب إلى العمل.

أما هي فقد قامت من السرير تجرّ قدميها بصعوبة وهي تتمتم
في سرها: «أول مرة قدّمه لي أخبرته أنني أعاني قرحة ومعدتي لا
تتحمله، في المرة الثانية تركته كما هو في المطبخ حتى أتى من
عمله ورآه ولم يعلّق».

مع الوقت اكتشفت أنه يقدّم لها ما يحب هو لا ما ترغب هي،
ومن بعدها أثرت الصمت.

الكل يحسدها عليه وكيف أنه زوج رائع.

كانت تتمن حديثهم وتضيف: «نعم، ولكن لأخرى، لا لي».
نعتوها بال«نكدية» مثل كثير من النساء، لا تقدّر النعمة التي
تعيش فيها، فلم تجد سبباً يقنع أسرتها المتواضعة بالعودة إليهم.
دخلت المطبخ، ومن جديد ألقته في بالوعة الحوض، ثم بحثت
بين الرفوف عن القهوة، فوجدت العلبة فارغة تماماً منها، فنذرت
اليوم صوماً ولن تُكلم إنسيّاً.

مسارات خاطئة

- «بُنْجُورِ مَدَامَ».

- «أَهْلًا!».

بادلته التحية بشيء من الريبة، فلم أكن على دراية كافية به، فقط لمحته عدة مرات يسير في الجوار، ثم وجدته يُحني رأسه، وأمسك بيدي يحاول تقبيلها.

كردّ فعلٍ سماءٍ أتاها الرعد فجأةً سحبْتُ يدي مستغفِرةً؛ اتسعت ابتسامتهُ لتتحول إلى قهقهة كأنه وضعني في اختبار ونجح في تَوْقُعِ النتيجة، فضحكتُ وتلاقت ضحكاتنا معًا.

- «أنا جاركم».

- «أعرف (بخجل أجبته)، لمحتك عدة مرات في أثناء خروجي من البيت».

- «أنا أيضًا أعرف عنك بعض التفاصيل، فأنت منفصلة عن زوجك منذ ثلاث سنوات».

- «وأنت مطلق أم أرمل؟».

- «بل أنا متزوج، وإن كنت لم أدق للزواج طعمًا».

- «وراءك حكاية؟».

- «بل في قلبي. ألدك وقت لسماعها؟».

- «أسمعك».

- «نسير قليلاً أم تفضلين الجلوس عند الاستماع؟».

- «أفضلُ السير».

- «أنا الأخ الأكبر من عائلة لم تنجب إلا ذكوراً. لسبب ما لم أفكر في الزواج، تزوّج أخي الأوسط وكذلك الصغير، وكلما سألتني أُمي متى سنفرح بك، أحببتها الإجابة النموذجية: لم يأتِ النصيب بعد».

- «وهل هذا السبب؟».

- «الزواج لم يكنُ أمراً يعنيني مثل غيري لإطفاء غريزة أو لرغبة في الإنجاب وامتداد اسم العائلة، بل كان بداخلي شيء يُلحّ منذ طفولتي بأنه مشروع لا أجد التعامل معه، إلا إذا أحببت امرأةً وأجبرني هيامي بها على هذا، وإذا حدث فلن أتركها أبداً. عائلتي اعتبرت تأجيلي المستمر لمشروع الزواج لا يخرج عن أمرين: إما أن لدي سبباً قهرياً يمنعني، وإما أن حبي لعملي حوّلني إلى شخص أناني وربما مجنون، ومن الصعب أن أجمع بينهما، فتعادلت الأسباب التي جعلت زواجي من وجهة نظر أهلي أمراً شبه مستحيل».

- «لا أفهم».

- «صراحة لا أميل إلى التعامل مع البشر، بينما أميل إلى التحدّث

مع كل ساكن، صامت وجامد، وبعدها كانت هوائية أصبحت مصدر رزق أيضاً، ومع الحجر وجدت حياتي، مثلما تتحدثين مع زملائك في العمل، وهذا ما جعلني في نظرهم مجنوناً».

لمعت عيناها وقالت بانبهار: «ماذا تعمل؟».

- «أخلق من الطين كهيئة الإنسان وأي كائن كان، فالصامت ينبض معي بالحياة، أمامهم هو حجر، لكنه طوع يدي يتشكل كما في خيالي، فقد خلقت فيه الحياة بطريقة ما. أزمته الوحيدة أنه داخل إطار المكان».

- «نَحَاتًا تقصد؟».

- «أقصد كل شيء وقد لا أقصده فيكون أجمل ممّا تخيلته».

- «وهل من يقوم بهذا الفعل مجنون؟».

- «لا، بل مهموم بما يحب، ومن الصعب أن يجد حباً آخر للمنافسة؛ لأنني بالفعل مشغول به وأعيش معه ومن أجله تفاصيل يومية، نتناول القهوة، الحكي عن همومنا، ما فات وما هو متوقّع في الآتي، وعندما يكتمل أصبح مزهوّاً به وهو مكتمل بكيانه الجديد، فأضمه إلى دفتر إنجازاتي، ذكرياتي، عمل مستمر لا وقت فيه لكلّ أو ادعاء الملل، ولا وقت فيه لامرأة تبحث عن رجل يلبي ويقضي الوقت للحديث معها، ومتابعة همومها اليومية. سنوات طوال وأنا العاشق الولهان لخيال تصنعه يداي، فأبثّ فيه

من روحي، ثم أحسُّه بيدي وأراه ويراه غيري، فيحكى حكايته بعد أن يلعب الخيال برؤوسنا. عشت هكذا لأكثر من ثلاثين عامًا، حتى جاءني خبر وفاة أخي الصغير كصدمة مدوّية غيّرت حياتي وأربكت كل حساباتي، لم يكن فقط الحزن على فراقه، بل صدمة أخذ مكانه مع زوجته وتولّي مسؤولية تربية أبنائه».

شهقة أصدرتها: «وماذا حدث؟».

- «جلست أُمي معي في إحدى الأمسيات التي لا يزال الحزن يخيم عليها، كان قد مر أربعون يومًا على وفاة أخي عندما سألتني: ماذا نحن فاعلون؟ هل ترضى أن يرَبِّي أولادَ أخيك رجلٌ غريبٌ؟.. وجدتني أمامها كأصغر مخلوق على الأرض، صامتًا لا أجد سبيلًا للردِّ، حياتي مقابل الحياة الجديدة التي تفرضها عليّ الآن بدافع الواجب، وهي تبكي حرقه على فراق الذي لن يعود يومًا، وبكاء الموجود الذي على وشك فقد حياته أيضًا».

- «ولكن يا أُمي لا أستطيع».

صمتُ لثوانٍ ثقيلة ثم أكملتُ: «إنها زوجة أخي، كيف تطلبين مني لمسها؟».

- «لم أطلب منك شيئًا. أنت الآن على مشارف الخمسين ولم تتزوج، وكثيرًا ما قلت إنك لا تفكر في الموضوع ولا تريد نسلًا منك لهذه الحياة، وهذه المرة لن أناقشك في شيء، مارس قناعاتك، لا

تتزوجها، لا تعاشرها، كُن لها ولأولاد أخيك سقف حماية».

بعد صمت لدقيقة أكملتُ: «تعلم أنه لو كان الوضع عكسيًا لفعَلها أخوك حتى يظلَّ صلبنا معنا».

- «وتزوجتَها؟».

- «نعم، منذ ثلاث سنوات، ومن وقتها ودون سابق تخطيط كل منَّا يتحاشى الآخر، وكل منا رافض ما اضطرَّ إليه، ضدَّان قرَّرا تأدية مهمَّة لا نعلم متى ستنتهي».

- «ألم تحاولا معًا ولو لمرة واحدة أن تعيشا كزوجين؟».

- «حاولنا ولم نستطع. ضدَّان نحن على المستوى الشخصي، في الظروف العادية لم تكُن لتجمعنا غرفة في يوم معًا أو حتى محادثة هاتفية، فكيف بزواج؟!».

وقفتُ لأنظر إليه كأنني أبحث عن علامة ما، شيء لا أعلمه، تعجبتُ من ملامحه وعينه اللتين تلمعان بالحياة.

- «وماذا أنت فاعل الآن؟».

- «لم آتِك الآن للإجابة عن سؤالك، بل لأسألك: أتعرفين سرَّ انجذابي إليك؟ لقد رأيتكِ صباح أحد الأيام في أثناء وقوفي في «البلكون»، أزحت ستارة شرفتكِ ثم اقتربت من سورها، رفعت وجهك إلى السماء وأغمضتِ عينيكِ باتجاه الشمس لثوانٍ، ثم

فتحت عينيك مع ابتسامه، ومن بعدها أرسلت قبلة للسماء ودخلت، وأنا الواقف في الشرفة التي أمامك لم تلاحظي وجودي، كأن الكون فرغ حاله من أجلك. من يومها بدأت في مراقبتك دون أن تلاحظي، لم أكن أرغب في أن تعلمي بوجودي، وتأنيت كثيراً قبل الحديث إليك حتى تأكدت من عدم وجود رجل في حياتك، غير ابنتيك اللتين تأتيان لزيارتك مرتين أسبوعياً. طوال الأسابيع الماضية أردد بيني وبين نفسي: ربما أنت من كتب علي أن أنتظرها لنحو نصف القرن (ابتسم)، فهل تتفقين معي؟».

بابتسامه مريحة قلت: «قرأت كثيراً عن فكرة استدعائنا للحب والفرح وكذلك الأحزان، لكني لم أكن متأكدة منها، والآن تأكدت! لقد انتهيت من تجربة زواج فاشلة جعلتني أقسم أن لا أعود مرة أخرى، تزوجت وسني ثمانية عشر عاماً، أنجبت بنتين وولداً، تزوجت البنات وأنا في سن الثانية والأربعين، وذهب ابني في بعثة إلى الخارج للحصول على الماجستير، وعندما ضممني وزوجي البيت لم نتحمل سنتين وحدث الطلاق. ماذا تسمي هذا؟ ربما لم يكن علي أن أتزوج وأنجب، وأكون مسؤولة عن عائلة. أسخف ما في الوجود أن تسير خلف فعلة من قبلك. مسؤوليات تأتي مسرعة وتباعاً ولا أستطيع أن أتوقف، ولا أحد يشفق علي فيترك لي مساحة للراحة، حتى تبين لي أنه أصبح لكل منهم حياته الخاصة إلا أنا، أصبحت أستجدي جزءاً يسيراً من حيواتهم لأستطيع العيش.

الآن فقط وبعدهما حدث الانفصال أعيش أجمل فترة في حياتي.
أتدري يوم رأيتني في الشرفة ماذا كنت أفعل؟ كنت أشكر ربي
على نعمة الحياة التي أعيشتها وخلوها من الرجال، فأنا أعيش الآن
حياتي من جديد وأحاول إسعاد نفسي، دون أدنى مسؤولية تجاه
أحد إلا هي».

- «جميل، فلنبدأها معاً».

- «أنت لا تعرفني وليس لديك إلا القليل عن ظروف حياتي، لم
نتقابل من قبل، أو افترقنا وعدنا ليرى كل منا الآخر، مجرد صدفة
صنعت حدثاً لديك، ومثل هذه المواقف تشوّه صورة الحب؛ لأنك
ستجدني مثل أي امرأة تبحث عن رجل يلبي كل أحلامها، ومضطرّ
إلى أن يشاهد معها فيلمها المفضل لعشرات المرات، وعليه مهما
أصابه الضجر أن لا يملّ حكاياتها اليومية، سواء عن صديقاتها
أو انشغالاتها البسيطة والمكررة، ووقتها سوف تنسى صورتي
وأنا أقبل شمس النهار وستتساءل: من هذه التي اقترنت بها؟!».

- «لماذا تشوّهين إحساسي بك؟ لقد حكيتُ لك مأساتي لأوصل
إليك كيف هي فرحتي بلقياك!».

- «بل أظهر لك جانباً مظلماً مني لم تره! حبك لكل صامت -
كما قلت- ربما لفتك إلي، لكنني لست حب حياتك الذي انتظرتَه
لسنوات، أنا لا شيء، أنا فراغ».

- «كأنك تعطينني درسًا في الحب!».

- «بل أخبرك تجربتي».

- «اتركيني أحاول».

- «المحاولة لن تُجدي، تجربتي جعلتني زاهدة في كل صنوف الرجال، جميعهم أصبحوا يحملون ملامح وصفات طليقي، وليس بيدك حيلة في ذلك».

ودعته بعدم اكتراث لأثر الهزيمة التي ظهرت على ملامحه، وكأنَّ هذا الموقف أتاها من السماء ليؤكد نجاحها في الاختبار، وتصميمها على عيش حياتها الجديدة والجديرة بإسعاد ذاتها، دون أن يكون للرجل فيها دور.

قَبْلَ عَشْرَةِ أَحْوَالٍ مِّنَ الْآنَ

مرّ على آخر محادثة هاتفية بيني وبين هدى شهران، لكن أول اتصال هاتفي جاءني منها كان منذ نحو عشر سنوات.

كنت في بلد الغربية عندما قالت لي: «البقية في حياتك».

وقتها انفرطت رُوحِي، ولم أتمالك نفسي، وحتى لم أقاوم النحيب الذي استمر طوال دقائق هذا الاتصال.

لم أكن أرغب في أن تكون البقية في حياتي، بل كنت أريد أن أعيش الحياة معها، فهي أختي، وكان من حقنا أن نكبر ونشيب معاً، ونفرح بأولادنا وهم يكبرون ويكملون دراساتهم الجامعية معاً، ونرضى بزواجاتهم ثم ينجبون ونصبح «تيّة وستو» ونحن معاً، لكنّ أيّاً من هذا لم يتحقق، فقد رحلت مبكراً.

أمس تحدثتُ هاتفياً إلى هدى لأبارك لها زواج ابنتها الكبرى، كان صوتها مبهجاً وهي تحكي تفاصيل الزفة وجمال العروسين وكيف كان الحدث جميلاً ومتكاملاً، وأنا أخبرها -وأنا صادقة- كيف كانت هي الأخرى عروساً، بأناقتها وجمالها؛ صممت قليلاً ثم أخبرتني كيف أنها تمنت وجودي معها، اعتذرت إليها لظروف أجبرتني على عدم الحضور، ووعدها أنني سأكون معها المرة التالية، عندما تسعد بفرح ابنها الأكبر.

لا أدري لماذا وهي في أوج فرحتها تحكي لي تفاصيل الزفاف، وكيف كانت القاعة قمة في الأناقة، والحضور جميعهم سعداء! كنت أنا أقاوم ذكرى المكالمة الأولى بيننا عندما قالت لي: البقية في حياتك.

على الرصيفِ

مساء يوم صيفي في أحد شوارع مصر الجديدة المزدهمة
بالباعة الجائلين، تجلس سيدة عجوز نحيلة تَعَدَّت السبعين، على
أحد الأرصفة، باسطةً أمامها قفصًا من الخوص، فوقه خيش بُني
اللون، تم ترطيبه بالمتاح من الماء، يعلوه عدد من لفّات ورق
العنب الأخضر، التي أكلها الذبول وغلب عليها اللون الأصفر
من كل جانب، عن يمينها «مِشَنَّة» موضوع عليها ذات الخيش
المهترئ، ومن فوقها عدد من حِزَم النعناع الأخضر الذي بفعل
شمس النهار، وعبث كل المريدين، تَبَيَّسَتْ أوراقه، وَتَحَوَّل لونه
إلى الأسود.

المرأة العجوز تتوسط ما بسَطَّته على جزء من الرصيف، بعدما
اتخذته مستقرًّا لها، وبإضاءة أفقية صفراء يسلِّط عمود النور
بعضًا من ضياء شاحب على بضاعتها المتواضعة.

أعطت ظهرها للشارع الكبير المتَّسع للمارّة والسيّارات من كل
صوبٍ ونوع.

الرصيف الضيق لا يتعدى عرضه مترين، يفتح أمام بصرها
عدد من المحلات لبيع عديد من الأغراض: لحوم وبقالة وحتى
محلات للذهب.

المرأة تضع على رأسها منديلًا ب«أوية»، ترتدي جلبابًا طويلًا
زيتي اللون برسومات لورود صغيرة بألوان كالحة، من هيئته

يظهر أنه بال، ولم ينعم ولو مرة بالغسل والارتواء بالماء، فلا يُسَعِّفَكَ ذكاؤك لتعرف إذا كان هذا لونه الأصلي، أم ما وصل إليه نتيجة استعمال سنين.

العجوز محنّية على بضاعتها، كل بصرها عليها، لكنها -أيضاً- شاردة، من وقت إلى آخر، وبصوت لا يكاد يُسمع: «حزمة ورق العنب بعشرين جنيه، وأربع حزم النعناع بجنيه».

ثم تصمت كأنه الدهر، وتعود بعد مدة تردّد ما سبق.

رفعت وجهها إلى المرأة التي وقفت أمامها وطلبت منها.

- «حزمتين نعناع».

- «أجيب لك إيه؟».

فوجئت المرأة بوجه العجوز المحفور عليه بقسوة تجاعيد العقود السابقة، فتظهرها طاعنة في السنّ، بينما عيناها شابّتان، عسليتان مائلتان إلى اللون الأخضر، شاء الله ألا يكون لهما شبيه في جمال اللون وصفاء بياض العين، فدُهِّشَتْ من شباب نظرتها، وعدم مواءمتها لهذا الجسد والهيئة الطاعنة في الكبر.

- «ما شاء الله يا حاجّة! عينك حلوة!».

ربما لم تسمع مجاملتها.

- «حزمة ورق العنب بعشرين جنيه».

ثم دارت يَمَنَةً وَيَسْرَةً تبحث للزبونة التي أمامها عن كيس بلاستيكي تضع فيه لفتين من ورق العنب، الذي تناولته من القفص ثم وضعتَه في وسط حجرها.

المرأة الأخرى قالت معترضة: «يا حاجة أنا سألتكِ عن النعناع، مش ورق العنب».

لم تلتفت العجوز وظلت تبحث عن كيس هنا أو هناك بجوارها أو جنبها، فعادت المرأة وانتبهت إلى أن العجوز لم تسمع حديثها فقالت بصوت أعلى: «عايزة النعناع (مشيرة إليه بيديها)».

نظرت العجوز بعصية ورمته من يدها وقالت: «خدي اللي انتي عاوزاه، أهو قدامك أهو».

لكن هذا لم يُوهن عزمها في البحث تحت قدميها وحولها، ولم تجد إلا قطع الخيش المهترئ، وبعض أوراق القمامة، فتمسك بها وتقرّبها من نظرها ثم تلقىها مرة أخرى بإهمال بجوارها. سألتها المرأة مرة أخرى: «على إيه بتدوري يا حاجة؟».

- «على كيس أخط لك فيه ورق العنب!».

- «مش عاوزة ورق عنب والله، عاوزة حزمتين نعناع».

وأخذت المرأة بعصبية تقلّب في النعناع المعروض، ولم تفلح في إيجاد أي حزمة تصلح للشراء.

- «ما فيش نعناع غير ده يكون طازة؟».

لم تسمعها. أعادت السؤال عليها بصوت أعلى، وعندما لم تجد منها استجابة انكفأت بظهرها في محاولة للاقتراب منها لعلها تسمعها: «ما فيش نعناع تاني؟».

بصوت رغم بحّته وعدم قدرته على أن يكون أعلى فإنه كان عصبياً ردّت العجوز: «يووووه! هوا دا الموجود».

ثم حاولت أن تكون أكثر إقناعاً للزبونة، كأنها تعرض عليها صفقة ما: «تاخدي لفتين ورق عنب بتلاتين جنيه؟».

مِلامِحُ صادِقَةٌ

كنت وحدي أحتسي قهوة باردة في مركز تسوق تجاري،
ولاحظت أن هناك أكثر من سيدة مثلي تجلس وحيدة، وقبل أن
أستغرق في التفكير عن سبب وجود كل واحدة منهن في المكان،
هبطت عليّ هالة من حيث لا أدري.

- «إيمان! أنتِ إيمان، أليس كذلك؟!».

- «أيوه».

- «معقولة! ما هذه الصدفة الغريبة؟ كم من أعوام لم أركِ
فيها؟».

- «ربما خمس سنوات».

- «فعلاً! احكي لي ماذا حدث معكِ، وما الذي أتى بكِ إلى
مدينتنا».

- «تزوجت وطلقت منذ سنتين».

- «كيف؟! طارق، صحيح؟ على ما أتذكر في آخر سنة بالجامعة
كنتما ترتبان للزواج، بعد قصة حب كنا نسميها «عنيفة»، فكيف
انفصلتما؟».

- «لنفس السبب. العنف؛ لم يصمد زواجنا طويلاً، حتى الحمل
لم يستمر سوى ثلاثة أشهر».

- «كان اختيارك؟».
- «لذلك لا ألوم أحداً، ومكتفية بتأمل التجربة وتوابعها».
- «ما توابعها؟».
- «لا تشغلي بالك، فأموري بخير، وأنتِ؟».
- «الحمد لله عندي وسيم ونسيم، وزوجي محمد ترك الوظيفة الحكومية وبدأ عمله الخاص مع زميلنا رؤوف، تذكيرينه؟».
- «نعم، أتذكر، أيام لا تُنسى».
- لحظة صمت توترت على أثرها، ثم بدأت في ترتيب أغراضي داخل الحقيبة، لأعطيها إحساساً بمغادرتي المكان، بيد أنها سألتني: «رقمك ما زال كما هو؟».
- «لا، لقد تغير، هذه بطاقة العمل، بها كل المعلومات».
- نظرت هالة باستغراب وسألتني: «من عادة؟».
- «أنا».
- «هل غيرت اسمك؟».
- «نعم».
- «لماذا؟! هذا أمر غير معتاد!».

- «بابتسامة مصطنعة) وهذا ما جعلني أفعله».

أشرت إلى الجرسون أطلب الحساب ثم أكملت: «بالطبع إجراءات قانونية صعبة استمرت لنحو سنتين، لكنها انتهت».

وضعتُ الحساب على الطاولة، ورفعت حقيبتني على كتفي، أردت إنهاء الحوار بعدما أصابني تلاحق الأسئلة بالعصبية، وأنا المضطرة إلى الإجابة عن سؤال تلو آخر.

- «(بتوتر لم أستطع إخفاءه) سعيدة أنني رأيتك اليوم، واقبلي اعتذاري؛ لديّ موعد. سلامي لأسرتك، وفي انتظار مكالمتك لكي نحدّد موعداً جديداً نلتقي فيه».

ظهر على وجه هالة الدهشة لكنها أكّدت حديثي: «بإذن الله، مع السلامة».

بسرعة اختفيت من المكان تاركةً ورائي قليلاً من القهوة الباردة.

نعم، أربكتُ هالة بكثرة الأخبار المتلاحقة عني، وربما لم تصدقها، ولكن مَنْ هي حتى تظهر لي من تحت الأرض لأسرد لها حقيقتي، وأخبرها أنني اعتدت تغيير شريحة جوالي باستمرار، والتحقت بعدد من الوظائف؟ يكفيها كل المعلومات الكاذبة التي أخبرتها بها عن زواجي وإجهاضي، وكل ما حكيته عن حياتي.

هكذا أنا منذ خمس سنوات، بعدما تَبَدَّلَتْ أحوالي مع آخر سنة بالجامعة، وكان قرارى اقتناص حيوات أخرى، تجعلنى أضيف إلى حياتى رصيِّداً من خلالهن، وقد يساعدنى ذلك على أن أشتاق أو أستعيد يوماً ذاتى.

مارست عديداً من الأدوار، ولزوم ذلك غيرت مظهري الخارجى، فارتديت الحجاب ثم خلعتة، صبغت شعري بألوان مختلفة، سافرت إلى مدينة المنيا، ولَبِسْتُ زِيَّ الراهبات بحثاً عن مأوى آمن لى داخل أحد الأديرة، وهكذا كانت أدواراً بغرض استنشاق روح أخرى، وتغيير نمط الحياة ولو لبعض الوقت.

توفِّي والدى قبل عامين، أمّا أمى فتعيش مع أخى الأكبر فى دى وتأتى مرة كل عام، فكان من السهل أن أعيش دون تأنيب مستمر منها، كما أنى أعتبر أن الصدق لا يصلح أن يكون مُطْلَقاً، فالتطرّف يحوِّله إلى وحش قاتل، حقيقة لم أهتم يوماً برأى أحد، فأنا أروى حقيقة ما أعتقده عن حياتى، ثم أضيف بعض التفاصيل التى تجعلها أكثر تشويقاً.

ما الذى كان علىّ أن أخبر به هالة عن خمسة أعوام من حياتى؟
أننى دون حدث واحد أفتخر برواية تفاصيله!

نعم يا هالة، ما زلتُ كما أنا دون زوج أو أولاد، ولا أمل لى فيهم؛ لأننى لم أنس الجرح الذى سبَّبَه لى طارق، أعيش متنقلة من

مدينة إلى أخرى، وأحمل كثيرًا من الأوراق المزوّرة التي تساعدني على أن أمرّ بين السنوات بحدث يغيّر نظرتي إلى عقارب الساعة، ويجعلني أتمنى أن تتوقف أو تسرع. لا شيء، ولا جديد، ولا قديم بتطوّرات جديدة منذ تركني طارق مكتفياً بجملته: «لا أعتقد يا إيمان أنك الفتاة التي كنت أرغب في الزواج بها».

- «بعد أربع سنوات اكتشفتَ ذلك، أم لم أعد أروق لك، وكنتُ فقط مرغوبة ووسيلة تسلية لسنوات الجامعة؟».

- «لستُ بهذه التفاهة».

- «لكنك بهذه السفالة لتتركني الآن. تعتقد أنني لم أدرك وجود أخرى، وأنكما تخططان للزواج قريباً؟».

بُهِت من إجابتي وسألني كيف عرفتُ. لم أجبه واكتفيت بالاختفاء من أمامه، خاتمةً ما اعتقدته قصة حب عنيفة.

كرامتي لم تهوّن عليّ ما فعلته، وأصبحت أشعر بجرح مفتوح للهواء يعبث به ويزيده تَقَرُّحًا. تركني طارق بلا عودة، ومن بعدها أصبح ما يهمني أن أنتقم منه.

تركت العاصمة ثم توجّهت إلى عددٍ من المدن، خمس سنوات لم أمكث في مدينة لأكثر من عام، امتهنت العديد من المهن: سكرتيرة مدير مكتب هندسي، لبيسة لفنانة شبه مشهورة، ومن المهن المسلية التي التحقت بها بائعة تذاكر في السيرك العالمي،

وأيضاً مسؤولة مواعيد عند طبيب لتجميل المشاهير، وهناك رأيت
عديداً من الفنانات اللاتي أعطيني مزيداً من البقشيش ببذخ حتى
أحفظ سرهن: «لا تخبري أحداً بأني أتيت، هاهنا؟».

يعطيني ما فيه النصيب، وأبتسم لهن في خجل مصطنع،
خافضة عيني إلى الأرض قائلة: «نهائي يا فندم، دي أمانة».

حالياً أنا معلّمة منزلية عند أسرة تاجر فواكه كبير في محافظة
الإسماعيلية، درّست بناته الثلاث ممن في المرحلة الابتدائية،
أمضيت معهم سنة دراسية اعتبرها من أجمل سنوات عمري،
شكل نموذجي للعائلة، فالأدوار مقدّسة ومقسّمة بعناية.

بيت فسيح يُطلّ على حديقة مترامية الأطراف، على الجانب
الأيمن فيها أشجار البرتقال والليمون، التي تبعث رائحة زهراتها
كل صباح تنعش يومي بأكمله، وهناك على الجانب الآخر مجموعة
من أشجار المانجو المتراصّة بعضها بجوار بعض، منظر يسرّ
القلب والعين، ويُقرّيني من الكون ومعجزاته وجزء من جميل
الأرض، وازداد الأمر جمالاً بعطف وحنان هذه العائلة، واعتباري
ابنتهم الرابعة.

تمنيت لو أستطيع أن أسامح وأنسى وأبدأ من جديد، وأنقض
العهد الذي قطعته على نفسي بالأأرتببط بأحد أو مكان، وأعيش
مكتفية بما تم تسديده إلى الآن، لكنّ بداخلي جرحاً لم يندمل،

ولن يحدث ذلك إلا إذا انتقمت منه.

اعتدت تتبّع أخباره، لا بسبب الاشتياق إليه، بل لانعدام رفاهية نسيانه، وكانت وسيلتي صفحته على فيسبوك، علمت عنه كل شيء، زواجه ومولد أبنائه، ألوان فراش بيته، وظيفته الحالية ونمنمة ملامح زوجته المحجّبة، مواقفه السياسية، ما يشجّعه من نوادي الكرة العالمية، وغيرها من اهتماماته الحياتية التي تخلو من أي وجود لي ولو بالتلميح.

أمّا الطريقة فكانت سهلة، ابتكرت شخصية مزيفة، ووضعت صور الفنانات العالميات كصور شخصية لحسابي، وهو القابل بصداقة الأخريات دون عناء البحث عن مصداقية حساباتهن الشخصية.

وأكثر ما يدعو إلى السخرية أنه أصبح من رواد التنمية البشرية، من أولئك الذي يزعمون المثالية وأنهم ينتشلون الناس من الظلمات إلى النور، فيساعدون غيرهم على اكتشاف قواهم الداخلية، لجعل حياتهم أفضل، وكثير من ذلك الهُراء والغُثاء، وله متابعون بعشرات الآلاف.

ورغم أنني كنت طوال الوقت مكتفية بمشاهدة تفاصيل حياته من بُعد، لعجزني عن تخيّل كيف يمكن أن ألقاه، فقد سخر لي القدر ما اعتبرته مستحيلاً، إذ نشر على صفحته أنه سيقيم حفل

توقيع لكتابه الجديد، وبهذه المناسبة أيضاً ستكون ندوة على هامش حفل التوقيع، الذي اختار أن يقيمه بعد أسبوع في مدينة الإسماعيلية، وأما سبب اختياره هذه المحافظة، فلأنها الأقرب لتجمع المتابعين له من محافظتي القاهرة والإسكندرية.

لأول مرة أعرف معنى تعبير «الطيران من السعادة»، فلم تحملني الأرض؛ لقد جاء إليّ دون أن أبذل أي مجهود، وكانت تلك بمثابة علامة على أنه قد آن أوان انتقامي منه والبدء من جديد.

كان اليوم لا يزال جميلاً مشرقاً في أوله، فقررت الذهاب إلى أحد مراكز التسوق المتواضعة هنا لأتناول قهوتي، وهناك قابلت هالة، وتمنيت شطب هذا الحدث من يومي، ولكن الحمد لله أنني أنهيته سريعاً، وعدت من جديد لترتيب يومي كأنه لم يحدث.

كان موعد بدء حفل التوقيع في الخامسة، ووصلت في الموعد. القاعة تعجّ بالحضور، ووجدت بعد اجتيازي بابها طاولة جانبية عليها صورة كبيرة له، ونسخ من كتابه الذي يحمل صورته الشخصية غلافاً رئيسياً! ثم باقات من الورد متناثرة في الأركان، وعلى الطاولة الرئيسة المجهزة لحفل التوقيع.

بهدوء شديد خطوت إلى الداخل باحثةً عنه، الحضور في ازدحام وعشوائية أصواتهم مزعجة وتزيد توترتي، أتألمهم ويبادلونني اهتماماً زائفاً ومحاولة معرفة عمّن أبحث، حتى لمحته من ظهره

واقفًا يتحدث بحماسة وتأثر أمام مجموعة من الشُّبَّان والشابَّات، وعن يمينه زوجته تحمل أحد أبنائه، والابنة الأخرى تقف بجواره ممسكة يده اليسرى. المشهد يصلح لصورة عائلية!

عندما اقتربت منه وأصبح بيني وبينه فقط خطوتان، تقدّم أحدهم وبعاد بينه وبين الناس، ثم ذهب به إلى المقدمة على طاولة مستطيلة، وأجلسه في منتصفها أمام الميكروفون الرئيس، وعن يمينه ويساره عدد آخر من نسخ كتابه، وبدأ عديد من الحضور يجلسون في أماكنهم استعدادًا لحديثه.

ذهبت إلى الخلف وجلست على أحد المقاعد الأخيرة حتى لا يراني. بدأت الندوة بحديث مسترسل من مسؤول القاعة يتلو برنامج الحفل، ثم أعطى الحديث لطارق الذي استفتحه بالصلاة والسلام على رسول الرحمة المهداة للإنسانية جمعاء، واستطرد بديباجة محفوظة جيدًا، فهو يردّد ما يكرّره الآخرون، ثم توقف لثوانٍ ليبدأ حديثه عن الإيجابية في الحياة وكيفية اتخاذها مبدأ للعيش.

نحو نصف ساعة وهو يتحدث بكلام منمّق لبق ومتأنق أسكّت من في القاعة، إلّا أنا، فقد كنت متعلقة بالنظر إليه تارة، ثم إلى زوجته وملامح التباهي الظاهرة عليها تارة أخرى. إنه يؤدّي دوره بإتقان، يحكي ويستشهد بقصص وحكايات أشعر بخرافاتها من هنا، من مكاني البعيد في آخر صفّ في القاعة، فكيف يصدّقه

آخرون؟ كثيرٌ منا يرى بأعين قلبه لا بعين الحقيقة.

انتهى من خطبته العصماء وانتبهتُ لذلك من التصفيق المدوّي الذي هجم على أذنيّ، وتَبَارَى الحضور في مدحه والثناء على محاضرتِهِ. ثم بدأتُ فقرة أسئلة الحضور، وأخذ كلُّ يحكي عن معاناته وهو يجيب مستشهداً بتجربته، كأننا أمام طابعة لورقة واحدة ينسخ منها آلاف النُّسخ، ورغم ذلك ما زلتُ أرى الدهشة في أعين مُريديه.

بعد ذلك أخذ الحضور يتوافدون إليه للحصول على توقيعه على نسخة الكتاب.

متى سيحلُّ دورك إيمان؟ هل سَأجد القوة للوقوف أمامه وإعطائه نسخة الكتاب مدوّنًا عليها سؤاله عن السبب الذي من أجله لم أَعُد أروق له؟ أم أخذ الميكروفون وأصرخ فيه وأنعته بالكاذب والممثلة الفاشل، وأنه مسخ من آخرين، فشل أن يكون وفياً أو يملك شجاعة إنهاء قصة لم يُعد قادراً على إكمالها، محتفظاً بأسباب حجبها عني إلى الآن؟

ولكنني أمام المشهد الذي رأيته وأراه الآن، عُدتُ وسألت: لماذا أفعَل ذلك؟ ألا يكفي أنه يتعذّب ببطء أمامي بتلك الصورة المثالية التي رسمها لنفسه؟

عليّ أن أنتظر العطب الذي سيأتي يوماً لا محالة، وسينخر فيه

حتى يتمكن منه، وقتها فقط سيعود إلى ذاته ليتخلص من معاناته
ويطهر نفسه، إذا استطاع سيشفى، وربما سيأتي ويعتذر، أما إذا
تجاهل هذا الإحساس فسيموت إلى الأبد، وسيظل ممثلاً فاشلاً
أمام جمهور متواضع الموهبة، وأي انتصار لي أكبر من ذلك؟

أما أنا فلم أكن مثله، تركتُ إيمان واستبدلتُ بها عادة، وعشت
بها ومعها خمس سنوات، تركتها تعيش حزن فراقه وأزمة وفائه،
واخترت أن أولد من جديد داخل حياة الأخريات، وأكون -ولو
وقتيًا- معهنّ، وعندما أملُّ من دوري أتركه إلى آخر، حتى وجدت
الحب من جديد وقررت أن أعود، لكن كنت من الغباء بحيث فكرت
أن أستغني عنه من أجل ماضٍ مشوّه أراه أمامي الآن.

لم تعد لديّ رغبة في إيلامه، أو حتى سؤاله عن سبب فعلته،
فهو فراغ أمامي لم أعد أراه.

انسحبتُ من المكان وأنا أردد: «مسكين، أصبح هذا هو
إحساسي به، فهو يؤدّي دوره كمثل رديء، وعليّ أنا أن أعود
إيمان، وأبدأ حياتي من جديد».

عندما قررتُ أمي الانتحارًا!

كانت الطريقة التي قرّرت بها أمّي إنهاء حياتها مؤلمة، كلما تذكرت تفاصيلها أنّ قلبي ألمًا كأنه حدث منذ قليل.

بدأ الأمر في عيادة الأسنان، عندما قرّر لها الطبيب تركيب طقم تأكل به بعدما أصبحت عملية تناول الطعام عسيرة عليها، أصابها ذلك بعصبية شديدة وحالة هياج.

- ”ضروري يا ستّ الحاجة تركّبي طقم أسنان، هنبداً ب..“.

- ”لا أريد الاستماع إلى تفاصيل ما سوف تفعله، أريد ترك العيادة لو سمحتم“.

بعصبية منعته من الاسترسال موجّهة حديثها إلينا ونظرات عينيها ”تطقّ شرارًا“ لائمة إياي وأخي لمجيئنا إليه.

الطبيب نظر إلينا مندهشًا من ردّها الحازم، رغم لين حديثه ومراعاته لها، لكنها تعمّدت أن يكون حوارها معنا من دونه، فقد كانت جملته ”تركّبي طقم أسنان“ كفيلة بالألا تتعامل معه، كأنه فراغ في العيادة.

كانت شخصيتها القوية والحازمة لا تزال موجودة، لم تغيّرهما عوامل الزمن أو مظاهر الشيخوخة، وربما ظلّ أقوى ما فيها تصميمها على وضع كلمة ”لا“ في مكانها الصحيح، التي من المستحيل أن تُمخى أو تتبدل إلى ”نعم“.

عندما تركنا العيادة متوجّهين إلى بيتها حاولت وأخي أن نهوّن عليها الأمر، مؤكّدين لها الراحة التي سوف تشعر بها بعد تخلصها من ألم التهاب اللثة الذي أصابها، وكيف أنها لن تعود مضطّرةً إلى تناول طعامها سائلاً ومضروباً في الخلط الكهربائي، وسوف تستعيد عافيتها وتتناول كل ما ترغبه، كما ستأخذ دواءها بانتظام وراحة.

ولم تحرك ساكناً حتى سعدنا إلى شقّتها وجلسنا معها لدقائق، ثم تركناها لتنام بعدما رفضت تناول عشاها الخفيف الذي أعدته لها، كما طلبت أن يذهب كلُّ منّا إلى بيته لتنام وترتاح.

من تجربتي مع جدّتي لأمي كنت أعتقد أنه في الكبر تنحسر رفاهية الاختيار وتصبح مساحة الرفض من الجنون، حتى جاءت هذه الزيارة لتؤكد لي عكس ذلك.

مع الزيارة الثانية باءت بالفشل كل محاولات الطبيب للنقاش حول تفاصيل علاج أسنان أمي، وأصبحت أكثر توتراً وعصبية، ممّا اضطرّ الطبيب -بعد الاتفاق معنا- إلى تخديرها بغاز تستنشقه لتصبح أقلّ حركة وأكثر هدوءاً ليتسنى له خلع ما تبقى من الأسنان الأمامية.

في نهاية الجلسة طلب منا أن نلتزم الراحة لأسبوعين، وألاّ نُجهد اللثة بالطعام الجامد بعد أن كتب لها مسكناً للألم تأخذه عند

الحاجة، مؤكِّدًا علينا العودة إلى العيادة بعد أسبوعين للاطمئنان على جروح الخلع، ومن ثم أخذ مقاس طقم الأسنان.

وتكررت زيارتنا لطبيب تركيبات الأسنان، وتعجبت من حالة السكون التي باتت عليها أمي في كل مرة نذهب فيها إلى الطبيب، حتى صارت الأسنان البديلة جاهزة للاستخدام.

مرّت شهور طويلة على هذا الموضوع، وفي أثناء زيارتي المعتادة للاطمئنان عليها أو تنظيف البيت والتأكد من أن جميع احتياجاتها متوافرة لديها، كنت كل مرة أجد طقم الأسنان في مكان مختلف، فمرة موضوع بجوار سريرها في كأس زجاجية يغطيه الماء، ثم داخل كوب بلاستيكي لا يُظهر ما بداخله، بعدها أخفته في الرفّ العلوي داخل دولا ب الحمام بحيث لا تراه أمامها أبدًا.

تجرت في إحدى المرات وسألتها: ”هل تستخدمين طقم الأسنان يا ماما؟“.

- ”نعم، استخدمته مرة“.

- ”متى؟“.

- ”في عيادة الطبيب عندما تأكَّد من صحة قياسه“.

يومها تأكَّدت أنها قرَّرت بينها وبين نفسها ألا تستخدمه أبدًا.

لا أعرف سر إعجابي وتقديري لموقفها، ورفضها تركيبه رغم إصرارنا، ربما لأنه أعطاني إحساساً أنها ما زالت أمّاً قوية لم يحوّلها الوقت إلى تابع عاجز وراء أبنائها، صلابتها أكّدت لي وجود أشياء مهما هرمتنا تظلّ شابة لا يلمسها الزمن ولا يلوّثها العجز.

يوماً استجمعتُ شجاعتي وسألتها عن سبب عدم استخدامها لطقم الأسنان للآن، نظرت لي بحدة، ولم تردّ على سؤالِي، واكتفت بإدارة وجهها إلى الناحية الأخرى، وقتها شعرت أنني عدت طفلة مرعوبة من أمها لارتكابها خطأ لا تدرك عواقبه، ومن بعدها لم تسوّل لي نفسي سؤالها مرة أخرى.

حتى مع تدهور حالتها الصحية لم يئنّها ذلك أو يجبرها على تقبّل أسنانها البديلة، فقد كانت تأكل ما تُطيقه، أمّا ما يصعب عليها فتركه، حتى صارت تأكل القليل، وإذا اضطررنا إلى إجبارها على تناوله كانت تغلق فمها وتضمّ شفثيها حتى أصبح رفضها سلوكاً يومياً أدّى إلى إصابتها بالوهن العامّ، ومعه ضَعْف جهاز المناعة، وهذا عرّضها للإصابة بمرض مزمن جعلها حبيسة الفراش، فكنت وأخي نتناوب رعايتها بالإضافة إلى ممرضة دائمة، بعدما رفضت أن يترك أيُّ منا بيته ويقيم معها، أو تأتي هي لبيت أحدنا، وأضحى لا مفرّاً أمامنا من الانصياع لرغباتها.

مع التدهور السريع لحالتها بدأ الطبيب بإعطائها تغذية

وريدية من وقت إلى آخر، ثم اضطرَّ إلى إدخال الطعام لها من خلال أنبوب رفيع عن طريق الأنف، نُدخِل فيه الطعام السائل عن طريق السرنجة، حتى اضطررنا إلى طحن الدواء وإذابته في الماء حتى يتسنى لنا وضعه بالسرنجة في أنبوب البلع.

إلا أنَّ الأمر بات مُؤلِّمًا، بخاصة مع تبديل الأنبوب عدة مرات بسبب انسداده، أو خوفًا من تلوُّثه جرَّاء الاستعمال اليومي المتكرر، وبتعليمات من الطبيب المعالج الذي حذَّرنا من اعتمادها الكلي في تناول الطعام على الأنبوب بات علينا نزع الأنبوب من الأنف من وقت إلى آخر، لمساعدتها على تناول الأكل الطبيعي، وألا تفقد قدرتها على البلع.

لكن الحال لم تُكن تتحسَّن، ولا حتى ثابتة، بل تتدهور إلى الأسوأ، فبعد ثلاث سنوات من جملة الطبيب الذي طلب منها تركيب طقم أسنان، ذهبت إلى بارئها بعدما اختارت أن تموت بطريقتها، وذلك بالكَرَّ على شفيتها إلى الأبد رافضةً الأكل بأسنان بديلة.

اغتصابٌ

احتجت إلى ثلاثين عامًا لأروي أمام أحدهم حادثة اغتصابي
وأنا طفلة!

وهذا ليس بمستغرب.

الغريب أنني ذهبت إلى مَنْ اغتصبني، وصفت له بالتفصيل
البطيء كيف فعلها معي، وإحساسي به!

ما أدهشني في الأمر أنه بكى بشدة، ووضع يديه على أذنيه
متوسلاً لي لكي أتوقف؛ لأنه لا يتحمل سماع مزيد.

سَكَنُ مَوْقَتٍ

صوت المواء يُؤلمني، كأن كفاً قبضت على قلبي ولم تطلقه، إنه يذكرني بأول مرة انتهت له منذ أسبوعين.

كانت ثلاث قطط صغار لأم بيضاء وأب يجمع بين اللونين الأبيض والأسود. القطط الصغار كانت تشبه والديهم: اثنان أبيضان والثالث أسود، لا أعرف الذكر منهم من الأنثى، أشاهدهم من بعيد دائماً على درجات سلم الدور الثاني فأمرُّ بكل هدوء من جانبهم، ولا أحاول الاقتراب خوفاً عليهم من أن يسقطوا في بئر السلم في أثناء محاولتهم الهروب مني.

علاقة يملؤها الخوف وتوجَّس كل طرف من الآخر، تبدأ وتنتهي بنظرات كل منا إلى الآخر.

شاهدت مولدهم -أنا الجديدة في هذه البناية- منذ أيام قليلة، كان حجمهم مجتمعين أصغر من كف اليد، أعقب ذلك مشاهدة ثلاثتهم يوماً وهم يرضعون من ثدي أمهم في أثناء استلقائها على جانبها الأيمن.

بدأت أسمع صوت مؤائهم الهادئ، وأحياناً المتقطع كأنهم يجربون طبقات صوتية جديدة، تمر أيام وهم جلوس بجوار أمهم ثم ملتصقون بها لدرجة أنني كنت أحياناً أراهم كقط واحد، يدفنون رؤوسهم في حضانها، ومع تشابه ألوانهم وإغماض أعينهم بالسكينة يتحولون إلى قط بدرجات من اللونين الأبيض

والأسود، مع تَمَوُّجات غاية في الجمال.

مع مرور الأيام تَحَرَّكوا قليلاً، لكنهم لا يزالون في الدور الثاني، لكن انفصلوا بعض الشيء عن أمهم، ثم بدؤوا يلعبون معاً، وفي وقت محدّد تأتي الأم تُرضِعهم، ومن بعدها يغفون قليلاً في كَنَفها لبعض الوقت، ثم تتركهم وتذهب إلى رفيقها عند باب العمارة بالأسفل، وهكذا من وقت إلى آخر في أثناء خروجي أو عودتي أو إخراج القمامة أصبحت حياتهم وروتينهم اليومي جزءاً من اهتماماتي.

منذ نحو خمسة أيام في أثناء عودتي ليلاً لاحظت وجودهم بالدور الأرضي، وتَعَجَّبت، فهذه هي المرة الأولى التي أراهم فيها على أولى درجات السُّلّم بالبناية. الغريب كان المشهد المحيط بهم، فاثنتان منهم كانا ملتقَّين حول القط الثالث كأنهم يرسمون حوله دائرة، والقط الثالث نائم لا يحرك ساكناً! اقتربت من أول السُّلّم بحذر شديد، حاولت قدر استطاعتي ألا أُحدث صوتاً حتى لا يتفرقوا، ولكن فضول عيني جعلني ألاحظ أن طريقة نومه كانت لافتة، لكن سرعان ما أهملت المشهد مكلمة صعودي إلى الدور الثاني.

في صباح اليوم التالي أيقظني أنين موائهم المتواصل، ذهبت إلى باب البيت للنظر من العين السحرية لأعرف سببه، فوجدت قطّ الأمس نائماً على مشاية الشقة المقابلة لنا، فتحت الباب

لأَتَبَيَّنَ سبب الصوت، فوجدت بجواره عظمة فخذ دجاجة لكنه لم يلمسها، في حين تُوَجَدُ قِطَّتَانِ صَغِيرَتَانِ عَلَى بُعْدِ عَدَدِ مِنْ دَرَجَاتِ السَّلْمِ، كِلْتَاهُمَا مِلْتَصِقَةٌ بِالأُخْرَى، وَتُصَدِرَانِ مَوَاءً حَزِينًا مِنْ وَقْتِ إِلَى آخَرَ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ تَأْكُذتُ أَنْ مَكْرُوهُمَا أَصَابَ القِطَّ الثَّالِثَ. جَزَعَتِ عَلَيْهِ وَلَمْ أَدْرِ مَاذَا أَفْعَلُ، لَمْ أَقَوَّ عَلَى النِّظَرِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، أَغْلَقْتُ بَابَ البَيْتِ مَحَاوِلَةً تَجَاهِلَ المَوْقِفِ، لَكِنِّي لَمْ أُسْتَطِعْ، فَفَدَّ أَصْبَحَ مَسِيْطَرًا عَلَيَّ.

ارْتَدَيْتِ مَلَابِسِي اسْتِعْدَادًا لِلخُرُوجِ ثَمَ نَزَلْتُ عَلَى دَرَجَاتِ السَّلْمِ مَسْرَعَةً إِلَى الخَارِجِ، وَفِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الهِرُولَةِ لَاحَظْتُ وَجُودَ وَالدِيهِ مِتْجَاوِرَيْنِ فِي الحَدِيقَةِ الأَمَامِيَةِ لِلبَيْتِ، كَأَنَّهُمَا يَتَلَقَّيَانِ حَمَامَ الشَّمْسِ اليَوْمِي. بَدَأَ المَوْضُوعَ يَأْخُذُ مِنْ تَفْكِيرِي حَيِّزًا أَكْبَرَ، وَتَسَاءَلْتُ كَيْفَ هَانَ عَلَى الأُمِّ تَرَكَ قِطَّتَهَا نَافِقَةً فِي الأَعْلَى وَتَرَكَ الأَحْيَاءَ مِنْهُمُ فِي مَنَاحَةِ حَزْنًا عَلَى ثَالِثِهِمْ، وَهِيَ هُنَا لَا تَبَالِي بِأَحَدٍ!

قَرَّرْتُ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ مَشْوَارِي عَائِدَةً بِسْرَعَةٍ إِلَى البَيْتِ لِمَتَابَعَةِ أَحْدَاثِ تِلْكَ العَائِلَةِ، وَفِي أَثْنَاءِ عَوْدَتِي وَجَدْتُ القِطَّتَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ مِلْتَصِقَيْنِ بِأَمَهُمَا يَرْضَعَانِ مِنْهَا، وَالأَبُ يَجْلِسُ مَعَهُمْ فِي الحَدِيقَةِ ذَاتَهَا، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ المَرَّةُ الأُولَى الَّتِي يَظْهَرَانِ فِيهِ خَارِجَ البِنَايَةِ.

تَسَاءَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي عَنِ مَصِيرِ القِطِّ الثَّالِثِ، أَيْنَ أَصْبَحُ

مكانه، ثم أسرع إلى داخل المبنى لأتلمس وجوده وهل ما زال في موقعه.

لديَّ رغبة في الإتيان بمعجزة لفهم لغة الحيوان، ذلك الصامت رغمًا عنه الذي يصدر كل الإشارات إلا التحدث بلغة نفهمها، فقد لاحظت أن الأعين تقول كثيرًا بنظراتها، فنستطيع أن نميز بين نظرات الخوف والفرح والاستكشاف، فلماذا أخذت منه صفة الكلام؟

في أثناء صعودي في مدخل العمارة فتحت الباب الذي كان مُواربًا ودخلت منه، بعد خطوتين وجدت قط الأمس متوفّي على مشاية الجار، وتعجبت بيني وبين نفسي؛ من أنزله الدورين ووضعه هنا؟!

انتفضت من مكاني عندما رأيته مجروحًا جرحًا غائرًا برأسه، كأن جزءًا من الرأس قد اختفي، وأصبح مكانه دم متجلط. لم أتحمّل المشهد؛ صعدت مسرعةً إلى الدور الثاني، وهناك وجدت عظمة الدجاجة في انتظاري على مشاية جارتنا.

كأن عالم القطط مثلنا يتعاملون مع صدمة الموت في البداية بالإنكار ثم بالرفض يتبعه الاكتئاب ويأتي لا محالة القبول. ما رأيته يؤكّد لي ذلك، ففي البداية جلسوا معه واحتضنوه ولم يستجِب لهم، ثم وضعوا بجواره طعامًا ليأكل، وعندما لم يلمسه

غَيَّرُوا مكانه حتى يستأنس بجلسته المعتادة، ولكن بعدما
يئسوا منه تركوه لمن آذاه، فقد أيقنوا أن القط الثالث لم يُعد
معهم، وجسده لم يُعد له أهمية، وربما كان من آذاه هو أمه.

يومها طلبت من حارس العمارة أن يدخل ويأخذ القط المتوفَّى،
ليدفنه، أعطيته علبة ورقية، كانت لحذاء عندي، رجوته أن يضعه
فيها، ويبعده عن البيت. نظر إليّ بشفقة، أعلم جيداً أنه اعتبرني
سيّدة قاربت على سنوات الخرف، لكني لم ألق بالاً لتصوراته
عنيّ، فما يهمني أن تنتهي هذه المجزرة من أمامي، وألا يراها
أطفال البناية.

ومع صباح هذا اليوم، وعندما سمعت المواء الحزين، انقبض
قلبي، خشيت رؤية مشهد مرعب آخر، فقررت ألا أخرج اليوم من
البيت، حتى لا أشهد موت أحدهم من جديد.

العاملة رقم 14

(I)

لم أعرف كيف أتعامل مع تصرفاتها، حتى ناديتها بيني وبين نفسي، بالسيدة المجنونة.

أوشكت على استكمال عام من العمل لديها مديرةً للمنزل، وما زالت تصرفاتها تمثل تحدياً لاستيعابي، ولم أعتد أو أهدد بعدُ إلى سرّ الحيوية والتفرد اللذين تأتي منهما أفعالها، فهي التي لم تكرر حدثاً مرتين، كما لا يمكن أن أحسن توقع أيّ من تصرفاتها المستقبلية.

فعلتها الأخيرة معي جعلتني على وشك قتلها، لكنني بدلاً من ذلك لَقنتها درساً لن تنساه طَوَالَ حياتها.

أول يوم عمل لي في البيت، استقبلتني قائلةً: ”ضعي ملابسك في الغرفة التي بجوار المطبخ (أشارت بيدها) وتعالني ساعدي الجنائني“.

وماذا كان يفعل الجنائني؟ في سري سألتُ، ومباشرةً وجدت الإجابة وأنا عائدة بعدما وضعتُ متعلقاتي!

يضع مربّعات من الخيش المزروع بالحشيش الأخضر تحت أرض كُسيّت قبله بالطيني، فالصالة الداخلية التي مساحتها

تقريبًا خمسة في أربعة أمتار مربّعة، عبارة عن غرفة معيشة فيها طقم كنب مطبوع بزهور صغيرة، وعلى الحائط المقابل له يوجد تليفزيون، ثم في الوسط شُيِّدت حديقة داخل البيت، أصبحت تقف عليها يوميًا حافية القدمين لتستمدّ منها الطاقة الإيجابية، وتدور كراقصي التنورة سبع مرات، أو مضاعفاتها: أربع عشرة أو إحدى وعشرين مرة في الصباح.

قلت في نفسي ربما هذا علم جديد، لكن مع روتين العمل اليومي، اكتشفت تَفَرُّد أفعالها على تلك المساحة الخضراء، لتجلس لساعات أو تودّي تمارين لا تشبه الرياضة، وأحيانًا تجلس فقط لتتنفس فيها.

هذا غير الاستيقاظ اليومي على حدث خاصّ بها لا يتكرر، مع مزاج متقلب بعنف.

أتذكر بعدما أتيت بنحو شهر، أني أفقت من نومي فجرًا على رائحة قهوتها، وعلى صوت الموسيقى يملأ البيت، ساعة وأنا أتقلب في سريري، وفجأة لفّ الهدوء المكان من جديد، وحين أفقت من نومي قالت لي بلغة العالم بالأمور: "لا تعتادي أن تغفي وقت نوم الناس، ولا أن تُفِقي وقت صحوهم".

واختفت من أمامي كأنها تحدّث حائطًا لا تتوقع منه ردًّا.

في أحد الأيام وقت العصر، سمعت ضحكتها تخرج من غرفتها

تدوّي في البيت، اعتبرت ذلك دلالة على مزاجها الرائق، لكن سرعان ما خرجت وأمسكتُ طبقًا من ”البورسلين“ كان موضوعًا على ”الكونسول“ ثم رفعتَه إلى أعلى، تاركةً إياه يدكَّ على الأرض ويُفتتَّ إلى قطع صغيرة.

لا يتوقف الحال عند هذا الحد، بل تعداه إلى تصرفات أكثر خبلاً، فقد طلبت بالهاتف طعامًا يكفي عشرين فردًا وظلت تأكله ليومين، وبعدها دعت صديقاتها اللاتي أراهن لأول مرة، ولم تقدّم لهن شيئًا للضيافة.

بعد انتهاء الزيارة قامت تنظّف المكان النظيف بالكلوركس والديتول، حتى تلاشت رائحة الهواء، وعندما طلبت منها أن تستريح وأودّي أنا هذه المهمة أشارت بيدها قائلة: ”روحي شوفي شغلك بعيد عني“.

لا أنسى يوم وجدتها تجلس على ”الصوفا“ في غرفة الجلوس الرسمية التي لم أرها تدخلها إلا في ما ندر ”مكّوعة“ يدها اليسرى على المسند، وكفها تغطي جبينها وعينيها.

ظلت هكذا حتى ظننت أنها ماتت في مكانها، وسمّاعة لاسلكية في أذنيها تضيء وتطفئ، وأنا أراقبها من بُعد... مرّت فترة ثم هبّت من مكانها، وطلبت مني أن آتيها بورق العنب من حديقة البيت لتجهيزه لعمل المحشي.

أتذكر يوم أتيت لمقابلة ابن أخيها لعمل مقابلة شخصية معي، فقد قرأت إعلاناً في إحدى الجرائد عن سيدة ”مُهَمَّة“ تطلب مديرة منزل، والشروط هينة جداً: أن تكون آنسة، ولا تزيد سنّها على خمسة وعشرين عاماً، ومقبولة الشكل، ومتعلمة، ولا تعول أحداً.

وجلستُ أنتظر في غرفة مكتب كلاسيكية، ثم قابلني ذلك الشاب، وبعد دقائق من حضورها تركني معها.

في أثناء المقابلة التي لم تدم أكثر من دقيقة سألتني سؤالين فقط:

- ”اسمك؟“.

- ”بدور“.

- ”هل اشتغلتِ من قبل؟“.

- ”لا“.

قامت من مكانها، بعدما مسحت بعينيها جسدي كله في ثوانٍ مخطوفة.

أتاني الشاب مرة ثانية وعلى وجهه علامات تعجب وقال: ”مخطوفة! لقد وافقت أن تعيّنك لديها“.

ثم أخبرني بشروط العمل، التي من أهمها المبيت يومياً،

والإجازة يومان فقط شهرياً، وفي وسط حديثه أكد عليّ ألا أدخل غرفة نومها مهما كانت الأسباب، مؤكِّداً أن ذلك على رأس قائمة الممنوعات. لم أهتم للأمر، بل على العكس رحبت به؛ لأنه يعني راحة من تنظيف غرفة.

في أثناء العمل حاولت التودُّد إليها، أو طرق بعض الأسئلة، مثل: لماذا أنتِ بمُفردكِ في هذا البيت الواسع رغم الصور العائلية الكثيرة المعلقة على الحوائط وفوق الرفوف لأطفال وشباب وشابات في ملابس زفاف ومناسبات أخرى سعيدة؟

بعصبية غير مفهوم سببها ردت: لا أسئلة تُوجَّه إليّ في هذا البيت، مفهوم؟

في الصباح تحدثت إلى الشاب الذي أحضرني إليها، وأخبرته عن خوفي منها، فردَّ عليّ قائلاً: ”خليكي ف حالكِ، شوفي أكل عيشك، أنتِ في نعمة“.

وأخذت أسأل نفسي: ”أي نعمة تلك التي يراني فيها؟!“.

وجدتها فجأة أمامي بعينين محمرتين ويطقّ منهما الشرار: ”لهذا البيت قواعد، إياكِ أن تحرقها مرة أخرى“.

ظلَّ هذا الحال معها حتى بتُّ أترقب الغد وجديده.

منذ أسبوع تقريباً، وكان الوقت ليلاً، أشعلت كل أنوار البيت

ثم دخلت غرفتها لساعة تقريبا، ثم خرجت منها تسبقها رائحة عطرها، وصخب وقع كعب حذائها يدب على الأرض الرخام، هيئتها في كامل زينتها وأناقتها، وتكاد تضيء من المصوغات التي ترتديها.

أدارت جهاز "الاستريو" على موسيقى لا أعرف لها أصلا، ثم أشعلت إنارة الحديقة، كأن حفلا سيُقام بعد قليل، ثم عادت إلى غرفتها تاركة كل شيء على حاله، لثلاث ساعات، بعدها وبعلو صوتها أمرتني أن أغلق كل شيء وأذهب للنوم.

أما الموقف الذي لا أنساه لأن ملامحه وتفصيله ما زلت أراها إلى اليوم، فقد بدأت بفرش ملاءة سرير على أرض غرفة المعيشة، طلبت مني إحضار شنطة السفر الصغيرة من الدولاب، ومقصا، ثم جلست نحو ساعتين تقصّ صورًا، تقص الأشخاص في ناحية والأماكن في أخرى، كأنها عملية بتر مُتقنة، بعدها قسمتهم جزأين، على اليمين وعلى اليسار، وهكذا حتى انتهت تمامًا، ثم دارت على حوائط البيت، وأمام حائطين متقابلين، طلبت مني أن أنزع ما عليهما من لوحات، ووضعت صور الأشخاص على حائط، والصورة المفرغة منهم على الحائط الآخر!

اليوم استيقظت، وكالعادة أدت ما عليّ من مهام يومية، ولاحظت غيابها، وأنها لم تخرج من غرفتها طوال اليوم، وقلت في نفسي: "ربما تركت البيت لمشوار ولم أرها".

لكن عندما أوشك النهار على الانتهاء أكلني القلق عليها، ولعب برأسي وصورّ لي كل مآسي العالم وأنا أنتظر، بالطبع خشيت على نفسي أولاً، أن أتهم بها وأنا البريئة، وتكون ضيّعتني بالفعل، فاضطّرت إلى الصعود إلى الدور العلوي، واقتربت ببطء من باب غرفتها ووضعت أذني عليه، بحرص شديد حتى لا تسمع خطواتي فتكون نهايتي، فلم أسمع سوى خشخشة أذني على بابها، فتراجعتُ ببطء وطأطأت رأسي؛ لأنظر من تحت الباب لعلّي أرى نوراً أو خيالاً لها في الغرفة، لكن لا شيء!

طرقت بيدي على الباب بخفّة، وبسرعة اختبأت، لكن الباب لم يُفتح، ولم أسمع صوتاً آتياً من داخل الغرفة!

من جديد استجمعت شجاعتي وطرقت الباب بشدة، وانتظرتها أن تجيب من ورائه، لكن دون فائدة.

قرأت الفاتحة بعدما طلبتُ من ربي أن يسهّل أمري، ثم قررت دخول غرفتها، تلك المنطقة المحرّمة! في الأول طرقت الباب طرّقاً شديداً، ثم وقفت في مكاني أنتظر خروجها، مرة وراء أخرى لا صوت سوى صوت السكون، ودقّات قلبي المسرعة والمرتعبة المرعوبة منها وعليها... حتى قررت المجازفة قائلة: "العمر واحد والرب واحد".

فتحت الباب وقدمامي بالكاد قادرتان على حملي، بهدوء وبحذر

شديدين وبكلتا يدي أمسكت بمقبض الباب، ضاغطة عليه، وفتح
معي بانسيابية دون أن يصدر عنه أي صرير، وبخطوات مرتبكة
لكن حريصة سرت على أطراف أصابعي فوجدت داخل غرفتها
صالة صغيرة أمامي، وفي مقابلي باب آخر. تنهدت واضعة يديّ
على قلبي وأنا أندب حظي العثر الذي أصابني يوم وافقت على
العمل لديها.

سرت لأربع خطوات لأجد باباً بمزلاج يفتح على جانبي الحائط،
وتوقعت أنه سوف يُحدث جلبّة لا محالة، وعليّ الآن اتخاذ قرار
سريع، إما بفتحه وإما بالهرب وإبلاغ الشرطة، وهم يقومون
باللازم.

بيني وبينها خطوة واحدة، فكيف أفرط في مغامرة كهذه
وأتركها للشرطة التي قد تتهمني بأي شيء؟ فقررت أن أفتح
الباب على مصراعيه وأدخل مهما كانت النتائج.

أمسكت بمقبض الباب، ولكن بتهور واندفاع، فسحبته للجهتين،
فأحدث صوتاً كأنه قطارٌ يسير على قضبان صدئة، ففُتح الباب
على غرفة "شِرحة" نظيفة مضاءة، زجاجها يطلّ على الحديقة
مباشرةً ممّا أعطاها مزيداً من الاتساع والبراح... لكنها ليست هنا،
فسريرها مرتّب، وكذلك الجلسة الجانبية الموجودة لا أثر فيها
لحياة.

في الغرفة حمام، وبجواره غرفة أخرى، قد تكون لملابسها،
وغرفة أخرى على الجانب الأيسر من غرفة النوم.

شهِقْتُ عندما لمحتها فيها، ويظهر معها آخرون، فأنا أرى
ظلمهم، لذلك لم تُكُنْ تسمع دقي على الباب.

لكن كيف دخلوا دون أن أراهم!

إنهم ستة أفراد في كامل أناقتهم، يجلسون على كراسي،
مكوّنين دائرة، وهي تتوسطهم! منذ متى وهم هنا؟!

ولماذا لم تطلب مني تزويدهم بطعام أو شراب!

ماذا عليّ أن أفعل الآن؟

أناديها وأخبرها بقلقي عليها، أم أعود إلى الدور الأول دون أن
تشعر بي؟

ولماذا أتصرف بمثالية؟ إنها فرصتي الأخيرة، وربما الوحيدة،
التي أثبت لها فيها أن الكون لا يسير فقط حسب قوانينها، وأن
هناك من يستطيع أن يحبط لها خططها.

بثقة شديدة وجرأة فتحت الباب وقلت لها: ”مساء الخير،
حضرتك محتاجة مني حاجة قبل ما أنام؟“.

شهقة مدوّية ألقتها في وجهي، وعيناها جاحظتان تكادان

تخرجان من وجهها عندما رأته. لكن الآخرين لم يحركوا ساكناً، كأن الأمر بيني وبينها فقط. وبصوت خفي سألتها: "ما هذا؟ إنهم ليسوا بشراً! تماثيل! من شمع أو حجر!".

هي أمامي، كأنها لم تستوعب بعد وجودي، أو كأنها تعتقد أنني لست حقيقة بل خيال، ثبتت في مكانها، وأنا عكسها حاولت أن أرى وأتعجب، بل وأسأل، فقد تأكدت أنها بالفعل مجنونة.

هزت رأسها وفتحت وأغمضت عينيها عدة مرات كأنها تأكدت من حقيقة وجودي، حتى جاءت عيناها مباشرة في عيني، أربعتني نظرتها إلي ولم أجرو على أن أشخص ببصري بعيداً عنها، حاولت التراجع والخروج من الغرفة، لكن أوان ذلك كان قد فات، وجرعة الشجاعة التي سمحت لي بدخول عالمها لم تُسعفني، ووجدتني أقول لها: "أنا آسفة، آسفة، آسفة!".

لم أعد أحصي المرات التي قتلتها فيها، ثم رجعت بظهري إلى الخلف حتى انتهيت خارج الغرفة، أدت وجهي إلى السلم الداخلي، وجرّيت بكل ما في من عزم، حتى كدت أقع مرات عدة وأنا أجري فوق درجاته، يلاحقني صدى صوتها وهي تصرخ: "حيوانة! كيف تجرأت؟! سوف أقتلك يا حشرة!".

بعدها بقليل سمعت طلقات مسدسها.

فتحت باب الفيلا، وأنا أجري كأنني أسابق الريح، إلى الشارع،

حافية القدمين، خائفة من أن تصيبني إحدى طلقاتها الطائشة، لكن بداخلي سعادة لا توصف، وراحة لم أشعر بها منذ أن أتيت إلى هذا البيت، ويقين أنني فعلت بها ما لن تنساه طوال حياتها.

(2)

لم أعتد أن أبرر نفسي لمن حولي، ولم أحتج إلى أحد طوال العقود الخمسة التي عشتها، فلدي شعور بالاكتفاء، حالة من الاستغناء والتوحد مع ذاتي تملؤني، كأنه جزء عميق ملتصق بي تحت جلدي مباشرةً، تكويني جعلني أعيش على هامش كل ما يجري من أحداث دون مشاركة فيها، فأنا، هنا من غرفتي، المتفرج الوحيد على العالم، بكل أفراحه ومآسيه، دون أن تهتز شعرة في جسدي، في حين أنتفض لرؤية ذرة غبار على أحد الرفوف، وحيثما دار بصري أريد أن أرى النظافة في أبهى صورها، لهذا بتُّ خبيرة في اقتناص عاملة المنزل الماهرة، ولأنني لا أستغني عن وجودهن داخل البيت، عرفتُ كيف من نظرة واحدة أعرف أفضلهن خُلُقًا، وكم ستمكث عندي، فالمرأة النظيفة لا وقت لديها لمحاولة معرفة أسرار ربة البيت، كما أنها بالسليقة ضميرها ويدها نظيفان.

في المقابل عليّ أن أعترف أنني امرأة قوية، مزاجية، وهذا يجعل درجة تحمّل أي إنسان لي ليست بالأمر الهين، وإن كان رأيهنّ

فيّ لا يعنيني، لذلك عندما أختار إحداهن يجب أن تكون أيضاً من النوع ”الجبان“، وإن لم تكن كذلك، أعاملها بحِدَّة لتصبح ”جبانة“.

الأمر الأخير المهمّ جدًّا أن تأتي العاملة وتترك البيت دون أن تعرف أي شيء عن تفاصيل حياتي، لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم.

أول أمس ذهبت من عندي العاملة رقم ١٣. رقم نحس، أشعر بذلك. نعم، أنا أيضاً من النسوة اللاتي يتطيَّرن بأرقام وأيام دون غيرها كيوم الثلاثاء؛ لذلك اعتبرت أنها أخذت الشرِّ وراحت.

عادةً أنشر إعلاناً مقتضباً في إحدى الصحف الخدمية، وعندما تصل إليّ من يهتمن بالإعلان أجمعهن في يوم واحد وساعة محدّدة وأعمل مقابلة واحدة مع الجميع.

وبعدما اكتمل النصاب، وهو خمس سيدات تقدّمن للوظيفة، ربّبت يوماً لعمل مقابلة شخصية مع كل منهن على حدة. انتهيت من ارتداء ملابسني، توجهت إلى مكتب ابن أخي الذي يعمل بالمحاماة، فهذه الطريقة القانونية تُعطي انطباعاً رسمياً أفضله في التعامل مع ”الخادمة“.

كان قرار اختيارها سريعاً وحاسماً، فقد كانت الوحيدة التي لا يحمل ”بوز“ حذائها غباراً، كما أن أظافرها مقلّمة ونظيفة، ومظهرها مرتّب، رأسها مطأطأً إلى أسفل، وعيناها غير زائغتين، والأهمّ من ذلك أنها من سكان الأقاليم. ممّا يعني أنها مع الوقت

سيصيبها الكسل من السفر إلى أهلها شهرياً، أعتقد لو أنها مرتبطة بهم ما تركتهم إلى مدينة أخرى من أجل المال. منطقي.

شهور مرت على عملها في البيت، وقد كانت عند حسن توقُّعي لها. مطيعة وتستमित في خدمتي ورضائي، أشعر بذلك، ولكن لا أظهره، حتى لا تبادلني بالجانب المتمرد فيها، ومن ثمَّ تبدأ في ابتزازي، طريقتهن وأعرفها جيداً، فيصبحن يملكنكِ بعدما كنت تملكينهن، مشكلتها في أنها مليئة بالفضول والرغبة في الأسئلة، وهذا أشدُّ ما يقلقني؛ لأنني أشعر كأن لدي مُخبراً في البيت، يراقب حتى نظراتي، ويعدُّ عليَّ تصرُّفاتي، وينتظر خروجي من غرفتي، ليبدأ رحلته في انتظار إجابات مني، لذلك واجهتُ فضولها عدة مرات بنبرة حاسمة لا رجعة فيها، وكانت من الذكاء بحيث أصبحت تخشى الاقتراب مني أو حتى التعامل معي.

حياتي ملكي وحدي، وليس من حقِّ أحد غريب أن يتلصص عليها ويبيدي فيها رأيه.

تزوجتُ منذ أكثر من ثلاثين عاماً، أنجبتُ ولداً وبناتاً، واعتنيت بهما كما ينبغي أن تكون العناية بالأبناء. سافرا إلى الخارج بعدما توفِّي والدهما، تاركين البلاد كلها، كانت في البداية زيارتهما سنوية، ثم أصبحت تمرُّ أعوام لا أراها إلا من خلال صور على الجوال أو فيديوهات على "واتساب". وجدا في الغربة السلوى بعد وفاة والدهما، كان القريب من قلوبهما بتصرفاته الحنون، وكنت أنا العقل المدبّر لأمر العائلة، هكذا يكون الحال دائماً، إذا

لم يؤدِّ الأب دوره المتوازن نابت عنه الأم، فتتحمل مسؤولية نقص دوره. الملفت في الأمر أنه أظهر جانباً لم أكتشفه في نفسي قبل زواجي، هو أنني امرأة قوية، وربما لا أحتاج إلى رجل في حياتي، لكنني بالتأكيد أحتاج إلى أولادي بجواري، بخاصة إذا كان السفر رغبتهما، لا لضرورة.

رضيت بالأمر ولم أظهر اعتراضاً، مكتفية بتذكاري لهما مشيداً في غرفتي، هما أنفسهما، ولكن كعرائس من قماش -هوايتي التي لم أستغن عنها- فأصرخ فيهما إذا ما قصّرا تجاهي، وأقبلهما إذا افتقدتهما، وأسأل عن أحوالهما إذا ما طال غيابهما.

كانا معي دائماً، صنعتهما بيدي، وأسكنتهما جواري، حتى لا أضعف فأتسول اهتماماً من أحدهما.

فلم أكن مثل والدهما الذي كان يعطي ويعطي ولا ينتظر مقابلاً، فالحب أخذ وعطاء، لكن بعض القلوب يعطي ويستمتع بالعطاء ولا يطلب من آخرين مبادلة الحب بذات الطريقة.

لم تتأثر حياتي كثيراً بعد وفاته، بل أصبحت أقلّ عرضة للخيبات؛ لأنني تعاملت مع الأحداث اليومية بكل يقظة وترتيب، دون مفاجآت يفرضها عليّ من حولي. رغم ذلك لم آمن خبث إحداهن، فقد وصلني أن هنالك مؤامرة خسيصة دبّرتها إحدى الزميلات ممن عملت معهن، قبل أن أطلب معاشاً مبكراً، فلست ممن يقبلن أن يكنّ لقمة سائغة في فم إحداهن، بخاصة إذا وصل الأمر إلى

اتهامي في شرفي المهني، وأني كنت أتلقى هدايا من زبائن المكتب لتسهيل إجراءاتهم الجمركية. إهانة لم أتحملها، خاصة أنها وجدت من يزيد لها اشتعلاً، فأصبحوا مجموعة يلوكون سيرتي في العمل بعدما كنت مرفوعة الرأس بينهم لعقود، وكان لا بدّ من ردّ اعتباري، دعوتهم إلى بيتي، وهناك بدون أي إهانة مباشرة جعلتهم يشعرون كيف أنهم حشرات أستطيع دعسها بالإهمال إذا ما فكروا مرة أخرى في أن يأتوا على سيرتي المهنية.

لا بدّ لنا من أخذ موقف من الحياة ذاتها لا منهم فقط، فلن يستطيع أحد أن يجعلني أتقبل إهانة، أو إهمالاً، أو أفعالاً وضيعة؛ لأنني كما رغبت في رؤية النظافة من حولي في الجمارك، سعيت إليها كذلك في البشر، فكنت أحاكمهم عندما يخطؤون في حقّ أنفسهم أو حقي، وحاكمت نفسي معهم، لم أرحم ذاتي كما لم أرحمهم، فمن يخطئ يتحمل نتيجة ذلك، كما حدث مع إحدى العاملات التي جاءت للعمل بالبيت عندما سألتني: "لماذا انفضوا من حولك؟".

وكان الردّ هو طردها.

لستُ صاحبة قلب قاسٍ، ولكن لا أرغب في أن أصبح صاحبة حكايات يتندر بها من حولي.

يذكرني ذلك بيوم سألت أُمي عندما كنت في مرحلة المراهقة: "لماذا تعاملين من حولك بهذه القسوة؟".

فردت عليّ بكل ثقة: "لست قاسية، بل أقول الحقيقة التي لا

يتقبلها الناس فيسارعون باتهامي بصفات ليست فيّ“.

ظلمتها يوم اتهمتها بالظلم، لكني اليوم أصدّقها، فمن يملك الحقيقة لا يملك غيرها.

الموقف الأخير الذي حدث مع عاملة المنزل رقم ١٤ صدمني في كل ما هو حولي، وهدم عليّ معبداً ظننت أعمدته راسخة تحت الأرض، أنا التي لم تخطئ يوماً في الحكم على أحد، حتى رأيتها أمامي، عيناها كالرصاصة في عينيّ، أرّقني سؤال ظللت أسأله: كيف بلغ بي الوهن درجة أن تسمح شخصيتي بحدوث ذلك؟ وكيف كنت من الغباء بحيث لم أتوقع حدوثه؟ كيف أوهمت نفسي أنني متحكمة في كل شيء، وممسكة بخيوط حياتي لتأتي تلك التافهة باصقة في وجهي كأنها تقول لي: طز فيك وفي كل ما تعتقدينه عن نفسك.

المؤلم في الأمر هو إرادتها مقابل إرادتي، فقد فعلت ما رغبت فيه، وذهبت أيضاً كما أرادت.

وأنا الطرف المتفرج الذي لم يعد قادراً على حماية حياته من عابري البيوت ممن يعيشون على حكايات غيرهم.

لكني ممن يتجاوزون التافهات مهما ألمتهم، لذلك أردتني ملابسي وأسرع بالنزول، فالיום موعد المقابلة الشخصية فقد طلبت منذ أيام من ابن أخي أن ينشر إعلاناً جديداً مقتضياً للبحث عن خادمة جديدة للبيت.

هزّت رأسها وأغمضت عينيها عدّة مرات كأنها تأكّدت من حقيقة وجودي، حتى جاءت عيناها مباشرةً في عينيّ، أرعبتني نظرتها، ولم أجرؤ على أن أشخص ببصري بعيداً عنها، حاولت التراجع والخروج من الغرفة، لكن أوان ذلك كان قد فات، وجرعة الشجاعة التي سمحت لي بدخول عالمها لم تُسعفني، ووجدتني أقول لها: أنا آسفة، آسفة، آسفة!

● ● أميمة السلاخ

كاتبة وإعلامية مصرية، حاصلة على ليسانس الآداب من جامعة عين شمس، تعيش وتعمل بالمملكة العربية السعودية منذ 1995، بدأت حياتها المهنية في المجال الصحفي، حيث عملت في العديد من الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية والقنوات التلفزيونية.

صدر لها رواية "معلقون بالأمل" عام 2015؛ ومجموعة "عاملة المنزل رقم 14" هي كتابها الثاني.